هذا هو الإسلام

الإسلام والتفاهم والتعايش بين الشعوب

الأستاذ هاني المبارك   الدكتور شوقي أبو خليل



Here is Islam

ISLAM
And Mutual Understanding & Co-existence Among Peoples
Al-Islām
Wa-al-Tafāhum wa-al-Ta'āyush bayna al-Shu'ūb
Dr. Shawqī Abū Khalīl

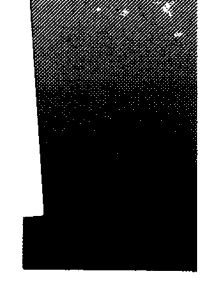
التعايش كلمة تعني العيش المشترك مع الآخرين ولا يكون التعايش إلا بوجود الألفة والمودة، ولا يعيش الإنسان مع غيره إلا إن وُجد بينهما تفاهمٌ ورغبة بعيشة مشتركة لُحمتها الأُلفة وسُداها المودة والثقة.

فما هو رأي الإسلام وموقفه من هذا التعايش والتفاهم، وخاصة مع المخالفين له في العقيدة ضمن الدولة التي يسود فيها حُكْمه وتعاليمه؟

وما هو موقفه من الدول والشعوب المخالفة له في العقيدة والدين؟

ISBN 1-57547-328-3





بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام

والتفاهم والتعايش بين الشعوب

شوقي أبو خليل

- من مواليد ١٩٤١
- دكتوراه في التاريخ الإسلامي.
- تقلب في الوظائف التربوية بين التدريس والتوجيه والمناهج
- محاضر في كلية الشريعة بجامعة دمشق
- أستاذ السيرة والحضارة العربية الإسلامية في معهد جمعية الفتح الإسلامي (حالياً)
- مدير النشر في دار الفكر - دمشق (حالياً)

له أكثر من ستين كتاباً، منها:

- سلسلة أطالس إسلامية (أطلس القرآن، أطلس الحديث النبوي، أطلس دول العالم الإسلامي، أطلس السيرة النبوية، أطلس التاريخ العربي الإسلامي)
- غزوات الرسول الأعظم ﷺ ١ - ١٠

الأستاذ هاني المبارك

- ليسانس في التاريخ
- مواليد دمشق ١٩٢٩م
- متفرغ للكتابة والبحث

أبرز أعماله السابقة

- مدرّس مادة التاريخ في ثانويات حلب ودمشق ودار المعلمين
- أستاذ التاريخ الإسلامي في الجامعة الليبية
- أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة الرياض
- عضو لجنة تسمية شوارع مدينة دمشق

نتاجه

- الإسلام والتفاهم والتعايش بين الشعوب (بالمشاركة)
- دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية (بالمشاركة)
- أريد أن أعرف أعلام أمتي ١-١٢
- موسوعة أوائل المبدعين والسابقين في الحضارة العربية الإسلامية (بالمشاركة)

الإسلام
والتفاهم والتعايش بين الشعوب

هاني المبارك   الدكتور شوقي أبو خليل

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

الإسلام والتفاهم والتعايش بين الشعوب/ هاني المبارك، شوقي أبو خليل. - دمشق: دار الفكر، ١٩٩٦ . - ١٠٩ص؛ ١٩سم.
١- ٩٥٦ م ب ا إ ٢- ٢١٦,٧ م ب ا إ
٣- العنوان ٤- المبارك ٥- أبو خليل
مكتبة الأسد
ع- ١٩٩٧/١/٧٠

Frankfurter Buchmesse 2004

Guest of Honour 2004 : Arab World

العالم العربي ضيف الشرف ٢٠٠٤

نظرة إلى المستقبل

الرقم الاصطلاحي : ١١٠٣,٠١٣

الرقم الدولي : ISBN: 1-57547-328-3

الرقم الموضوعي: ٢١٠

الموضوع: دراسات إسلامية

العنوان: الإسلام والتفاهم والتعايش بين الشعوب

التأليف: هاني المبارك ود. شوقي أبو خليل

الصف التصويري: دار الفكر – دمشق

التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية – دمشق

عدد الصفحات: ١١٢ صفحة

قياس الصفحة: ١٢ × ١٧سم

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية

فاكس: ٢٢٣٩٧١٦

هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ – ٢٢١١١٦٦

http://www.fikr.com/

e-mail: info@fikr.com

إعـــادة

١٤٢٤هـ = ٢٠٠٤م

ط١/١٩٩٧م

كَلِمَةُ النَّاشِرِ

بسم الله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، وعلى آله وأصحابه والتَّابعين ، وبعد ..

بتوجيه من وزارة التَّربيَّة العربيَّة السُّوريَّة ، وبالتَّعاون مع المنظَّمة الإسلاميَّة للتَّربية والعلوم والآداب (إسيسكو) ، كُلِّف الأُستاذ المربي هاني المبارك بإلقاء محاضرة في الملتقى الثاني للشَّباب المسلم ، على أن يكون عنوانها : (الإسلام والتَّفاهم والتَّعايش بين الشُّعوب) ، وفعلاً أُلقِيَت هذه المحاضرة في مدينة الشباب في دمشق ، السَّاعة العاشرة من صباح الأحد ٢٠ ربيع الأول ١٤١٧ هـ ، الموافق ٤ آب (أغسطس) ١٩٩٦ م .

ولأثر هذه المحاضرة الطَّيب فيمن حضرها ، راح عديد من الأخوة يطلبون تصوير أوراقها ، أو الحصول على شريط تسجيل لها .

ورغبة من دار الفكر بدمشق ، وحرصاً منها على أن تعمَّ الفائدة وتنتشر ، أخذ الدكتور شوقي أبو خليل المحاضرة ، وتناول الموضوع ذاته عبر ثلاثة محاور :

١ ـ تمهيد عن (نبيِّ المرحمة) .

٢ ـ ونصوصٌ تاريخيَّة منذ عصر رسول الله ﷺ ، وأيَّام الرَّاشدين ، وأيام الأُمويِّين والعبَّاسيِّين ، وأيَّام الدَّوْلَتَيْن النُّوريَّة والصَّلاحيَّة ... وحتى أيام العثمانيِّين .

٣ ـ وخاتمة : (الإسلام ليس كما يزعم الغرب) .

سائلين الله النَّفع بها .

وسيبقى الإسلام دين التَّسامح المعترِف بالآخَر ، الضَّامن لوجوده بحرِّيَّة وطمأنينة ، فالمعاهدات التي وُقِّعَت منذ صدر الإسلام في البلاد التي فتحها العرب المسلمون ، إقرار وضمان تحميه عقيدة ربَّانيَّة ، يعيش فيها النَّاس ، كلُّ النَّاس ، آمِنينَ على أنفسهم وأهليهم وأموالهم ودور عبادتهم :

﴿ يا أَيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقناكُم مِن ذَكَرٍ وأُنثى وَجَعَلْناكُم شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ إنَّ اللهَ عَليمٌ خَبيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣/٤٩] .

دار الفكر

دمشق ـ سوريَّة

المحتوى

الإِسْلاَمُ والتَّفاهم والتَّعايش بين الشُّعوب

الأُستاذ هاني المبارك

الإسلام
والتفاهم والتعايش بين الشعوب

بقلم هاني المبارك

الإسلام هو الدين الذي نزل الوحي بآياته على رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ مسايرة تشكيل مجتمع بدأت نواته في مكة المكرمة ثم اكتملت آياته - في المدينة المنورة - (بالكتاب العربي المبين - القرآن الكريم -) خلال ثلاث وعشرين سنة ، وأصبح هذا الكتاب دستور المسلمين ومصدر - التشريع الأول - لتنظيم حياتهم الدينية والدنيوية . وكان مع سُنَّة الرسول الكريم ﷺ الأساسَ لتنظيم علاقات المسلمين في مجتمعهم ، وفيما بينهم وبين الآخرين من غير المسلمين ، وفيما بينهم وبين الدول والشعوب الأخرى .

وسأعتمد في حديثي على هذين المصدرين ـ القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة ـ كأساس للبحث الذي يتعلق بموقف الإسلام من التفاهم والتعايش مع غير المسلمين أولاً ، ومع الشعوب والدول الأخرى ثانياً .

التعايش كلمة تعني العيش المشترك مع الآخرين ولا يكون التعايش إلا بوجود الأُلفة والمودة ، ولا يعيش الإنسان مع غيره إلا إن وُجد بينهما تفاهمٌ ورغبة بعيشة مشتركة لُحمتها الأُلفة وسُداها المودة والثقة .

فما هو رأي الإسلام وموقفه من هذا التعايش والتفاهم ، وخاصة مع المخالفين له في العقيدة ضمن الدولة التي يسود فيها حُكْمه وتعاليمه ؟

وما هو موقفه من الدول والشعوب المخالفة له في العقيدة والدين ؟

من الجدير بالذكر قبل الخوض في الجواب على هذه التساؤلات أن نقول : إن التفاهم والتعايش لا يقومان بين

طرفين مختلفين بالفكر والعقيدة ، إلا إذا توافر لدى كلٍّ منهما رغبةٌ في العيش المشترك وتسامحٌ حول الأُمور المختلف فيها وقبولٌ من الطرفين بالتعددية العقائدية . ولا يكفي أن يؤمن بالتعايش والتسامح طرفٌ واحد بينما يُنكر الطرف الآخر أو الأطرافُ الأخرى ذلك وتأباه .

كيف لنا أن نتصور قيامَ تعايش بين إنسان راغبٍ فيه ، ومؤمنٍ بوجوبه ، وصادقٍ مخلص في سلوكه إليه ، وبين آخر تأبى عقيدته ذلك ، كأن يعتقد بأنه من أمة تفضل جميع الأمم ودماؤها صافية راقية وعرقها أنبل العروق وعبقريتها فوق كل عبقرية ويقول : إن أمتي فوق جميع الأمم .

أو أن يقول : إن شعبيَ خلقه الإله ليكون سيد الشعوب ، وإن جميع الشعوب خُلقت لخدمة ذلك الشعب المختار .

أو أن يقول : إن كل العقائد والمبادئ زور وبهتان ولا يصح منها سوى عقيدتي وإذا أُتيح لي منعت الآخرين من الإيمان بغيرها وأكرهتهم عليها .

كيف يمكن لإنسان سويٍّ بتفكيره ، إنسانيٍّ بنظرته ، متسامح بسلوكه أن يعيش أو يتعايشَ مع هذا النمط من الناس . نحن في هذه الحال أمام أقوال مرفوضةٍ إنسانياً ومنطقياً ، ولا يمكن التعايش مع أصحابها إلا بذل وهوان وهذا ما يرفضه كل إنسان .

الحياة المشتركة مع الآخرين تحتاج من جميع الأطراف فيها ، قبولاً بتعايش فيه عدل ومساواة أي فيه تسامح فيما اخْتُلِفَ فيه لدى تلك الأطراف ، واحترامٌ متبادَل من كل طرف للطرف الآخر على قاعدة تقول : نتفاهم حول ما اتفقنا فيه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه ، وعندئذ تنجح عملية التعايش والتفاهم بين الأفراد في المجتمع الواحد ، وبين الشعوب المختلفة .

وسأدلي في هذه الأسطر القليلة بما تسمح به معرفتي ، وبما يسمح به الوقت بدلوِ ما أراه رأي الإسلام في هذا المجال . وحبذا لو أدلى كلٌّ صاحب مبدأ وعقيدة بدلوه ، لنتفحَّص بعد ذلك ما في الدِّلاء ، ولنرى ما تحمله تلك الدلاء للعطشى والظامئين .

لقد أحدث النبي محمد ﷺ انقلاباً فريداً من نوعه ، عميقاً في غرسه لقيمٍ ومفاهيم جديدةٍ ، منسجماً في ذلك مع الفطرة الإنسانية ، فيقبلها الفكر البعيد عن التعصب ، وأقام الدليل على صحتها بالحوار الحر ، والكلمة الجميلة ، دون إكراه أو اضطهاد وإلزام ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ [المؤمنون : ٩٦/٢٣] .

أقام محمد ﷺ العلاقات بين أفراد مجتمعه الجديد على أسس إنسانية تجاوز بها كل الاختلافات والفوارق الدينية والعرقية واللونية والطبقية وجعلها علاقاتٍ بعيدةً عن كل تعصب مهما كان أصله ولونه ، لأن التعصب جهل ، والعصبية جاهلية ، وقد أبطل الإسلام العصبيات المختلفة ، للقبيلة ، وللآباء والأجداد ، لقد أبطل النظرة الجاهلية التي تعتمد على التفاخر بالأنساب والأحساب ، والتي تولد الحزازات والصراعات والتي يمثلها قول الشاعر الجاهلي :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت ... غويت وإن ترشد غزية أرشد

وقول الشاعر الجاهلي أيضاً :

إذا بلغ الفطام لنا صبي ... تخر له الجبابر ساجدينا

أبطل الإسلام التمايز والتفاضل بغير الأعمال التي يقدمها الإنسان لخدمة الآخرين في مجتمعه ، وجعل الناس سواسية في إنسانيتهم فهم بنظره من أب واحد وأم واحدة فكلهم لآدم وآدم من تراب ، فلا يتفاخرون بأب أو لون أو دم أو عرق ، ولا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأبيض على أسودٍ إلا بالتقوى . هذا هو الطريق الإنساني الذي رسمه رسول الإسلام ﷺ للمسلمين . فالخلق ـ أو الناس ـ كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله .

من هذه المبادئ الإنسانية التي خطَّها الإسلام لمعتنقيه ، يُقبِل المسلم على حب الناس جميعاً ، أكانوا على عقيدته أم لم يكونوا ، مؤمناً بأن رابطة إنسانية تشدّه إليهم ، وهذا ما ورد في صلب عقيدته المعتمدة على القرآن الكريم وسُنَّةِ الرسول ﷺ .

أما القرآن فهو كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا

من خلفه فهو تنزيل من لدن عزيز حكيم . وأما سُنَّة الرسول ﷺ فهو الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، وقد أُمر المسلمون بنص القرآن الكريم أن يتبعوا ما يأمرهم به رسول الله ﷺ حيث قال الله تعالى لهم : ﴿ من يُطع الرسولَ فقد أطاع الله ﴾ [النساء : ٨٠/٤] . وقال أيضاً : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ [الحشر : ٧/٥٩] .

من كل ما سبق نستنتج أن مبدأ التعايش والتفاهم والتسامح مع الآخرين على اختلاف قومياتهم وعقائدهم وألوانهم هو جزء من عقيدة المسلم فهو كصلاته وصيامه وجميع عباداته يقوم على إيمانه بالوحدة الإنسانية لأن الخلق أو الناس كلهم عيال الله . فالمسلم يعيش في أسرة كبيرة خلقها الله ليتعايش ويتعارف أفرادها ، والمسلم ملتزم بذلك لأنه يتلو في قرآنه الكريم ﴿ ياأيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [الحجرات : ١٣/٤٩] .

لا أعتقد أن هناك نظاماً أو دستوراً في العالم يصل بإنسانيةِ دعوته إلى هذه الدرجةِ من التأكيد على مبدأ إنسانية البشر جميعاً ، فالخِطابُ موجّه في الآية الكريمة إلى الناس ، وأية كلمة أوسعُ شمولاً في مدلولها الإنساني من كلمة الناس التي تشمل البشر جميعاً على اختلاف ألوانهم وقومياتهم وأديانهم وطبقاتهم . ثم يأتي التأكيد على محو كل تمييز بينهم مهما كان لونه فالكل من أب واحد وأم واحدة ، ثم تكاثرتم يا بني آدم فكنتم شعوباً وقبائل . ثم يأتي التأكيد أخيراً على الهدف من خلقكم (لتعارفوا) وهل يكون هناك تعارف إلا بتفاهم وتعايش وتآلف وتسامح وتعاون وبصورة خاصة عندما يوضّح الخالق العظيم صفة المتفوق عنده من هؤلاء البشر جميعاً ، إنه أتقاهم ، وهل التقى إلا العمل الصالح ، الذي يقرب العبد من الله ويحببه إليه ، ألم يقل رسول الله ﷺ بأن أقرب الناس إلى الله وأحبَّهم إليه أنفعُهم لعياله ، وعيال الله ، كما ورد في نص الحديث ، هم الخلق أو الناس جميعاً دون حصر ولا تحديد .

لقد عمل الإسلام على غرس مبدأ التقوى في القلوب ، ومن معانيه نُصرةُ الحق ، والبعدُ عن العصبيات الجاهلية التي حوَّلها الإسلام إلى عصبية للحق والعدل والخير للناس جميعاً ، لقد أراد الرسول الكريم ﷺ أن يجتث جذور العصبية الجاهلية ، عصبية الأحساب والأنساب ، وأحل محلها عصبيةً للحق والعدل فحذَّر من الأُولى في أقواله وأفعاله ، فقال ﷺ : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل عن عصبية ، وليس منا من مات على عصبية »[١] .

المجتمع في الإسلام مجتمع يتعارف أبناؤه على الخير ويتعاونون على الخير أيضاً وقد رسم لهم القرآن الكريم طريق التعاون فقال : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ [المائدة : ٢/٥] . وأي خروج أو انحراف عن هذا المبدأ في التعارف والتعاون إلى أي نوع من أنواع العصبية إنما هو جاهلية وخروج عن تعاليم الإسلام التي تنظر إلى العمل لا إلى النسب ويؤكد على هذا المعنى رسولُ الله ﷺ فيقول :

(١) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه .

« من أبطأ بـه عملـه ، لم يسرع بـه نسبــه »[١] وقـولـه لابنتـه فاطمة : « يا فـاطمـةُ بنتَ محمـد ، اعملي ، لا أغني عنـك من الله شيئاً »[٢] .

إذن تبقى العصبيـة في الإسلام ضمن إطـار العصبيـة للحـق والعدل بعد أن أذهب الله عن المسلمين نخوة الجاهلية وتعـاظمهـا بالآباء .

إن الإسلام واضـح كل الـوضـوح في تعـاليـمـه ومـواقفـه من النظرة الإنسانية للنـاس جميعـاً ، **ومن مبـدأ قبولـه للتعـدديـة العقائديـة** . وحين يقف المسلمون من مخـالفيهم في العقيـدة مثل هذه المواقف أي من احترامهم لعقائد الآخرين والتزامهم بـالعقود والمعـاهـدات والوفـاء بهـا ، إنمـا يفعلون ذلـك لا عن مجـامـلات تقتضيها ظروف مؤقتة وآدابٌ اجتماعيـة ، بل تنبثق مواقفُهم من صلب عقيدتهم وتعاليم دينهم الذي يلزمهم بذلك .

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

إن الإسلام بطبيعته كخاتم للديانـات السماويـة يؤمن بكل مـا سبقـه من تلـك الـديـانـات ، وبكل من سبـق من الأنبيــاء والرسل ويحمـل الإسـلامُ الاحترام والتقـدير للجميـع ﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ [البقرة : ٢٨٥/٢] . فـاحترام المسلمين للأفراد والشعوب المخـالفـة لهم عقيـدةً ، نـابعٌ من صلب عقيـدة الإسـلام وليس مجاملةً أو رياء .

إن الأمر يتطلب من الأطراف الأخرى أن تقـابل الإسلام بمثل ما يقابلها به وإلا اضطر أن يقابلها بالمثل فإن واجه عدواناً عليـه اضطر أن يـدافع عن نفسـه وهـذه سنَّـةٌ من سنن الطبيعـة والكون . ولهذا سمح القرآن الكريم للمسلمين بالدفـاع عن أنفسهم فقال لهم : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافـة ﴾ [التوبة : ٣٦/٩] ، ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقـاتلونكم ولا تعتـدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ [البقرة : ١٩٠/٢] .

إن المجتمعات البشرية السليمة هي ذاتَ السياسات الإنسانيـة والتي تقوم العلاقـات بين مـواطنيهـا أولاً وبينهـا وبين الشعـوب

الأخرى ثانياً على أساس من الثقة المتبادلة والمودة الصادقة ومحبة الخير دون مجاملاتٍ مزيفةٍ ومظاهرَ من الود كاذبةٍ وخادعةٍ . الإسلام غرس في قلوب أتباعه النظرة الإنسانية ومحبة الخير لأفراد المجتمع بغض النظر عن دينهم وذلك تنفيذاً لقول رسول الله ﷺ : « من ظلم معاهداً أو انتقصه حقه ، أو كلفه فوق طاقته ، أوأخذ منه شيئاً بغير طيب نفس ، فأنا حجيجه يوم القيامة »[1] . هذا هو الصعيد المثالي الإنساني للمجتمع كما يرسمه ويريده الإسلام أكان ذلك بين الأفراد في المجتمع الواحد أم بين الشعوب والدول ، ومن خرج عن هذا السبيل حمل الوزر والإثم .

لكنني أعود إلى التأكيد إلى أن النتائج المرجوة إنسانياً لا تتم إلا أن يتحلى جميع الأطراف بمثل هذه المبادئ والأخلاق تسامحاً ومحبة ومودة ووفاء وقبولاً للتعددية العقائدية على أساس المبدأ القائل ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ [الكافرون : ١٠٩/٦] فكما أن الديمقراطية الصحيحة لا تتم في الميدان السياسي إلا بوجود حرية

(١) رواه أبو داود في الخراج والإمارة .

سياسية وتعددية حزبية ، كذلك لا تُضمن الحرية العقائدية إلا بقبول التعددية الدينية والعقائدية ، وحين يقول أصحابُ كلٍّ عقيدة للمخالفين لهم : لكم مالنا وعليكم ما علينا ، والحرية حق لنا ولكم على مختلف الأصعدة ، عندئذ تعيش الشعوب بسلام ومحبة واطمئنان .

إن النظرة الإنسانية القائمة على الاعتراف بالتعددية العقائدية بين أفراد المجتمع الواحد هي نفسها بالنسبة للإسلام مع الشعوب والدول المخالفة له بعقائدها .

إن الإسلام ينظر إلى أصحاب الديانات الأخرى المعاهدين أو المؤمَّنين ـ أي أهل الذمة ـ كما ينظر إلى الدول الأخرى وشعوبها والتي لا تقف منه ومن أتباعه موقف المحارب والمعادي .

جاء في كتاب الخراج ليحي بن آدم : أنه حين دنا أجل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أوصى وهو على فراش الموت بقوله : أُوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيراً ، وأن يوفي لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، وألا يكلفهم فوق

طاقتهم[1] . هذه الوصية تتفق مع تعاليم الإسلام ومع المعاهدة التي وقَّعها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أسقف بيت المقدس والمعروفة باسم العُهدة العمرية والتي غدت مثلاً يحتذى وقدوة للمعاهدات من بعدها وفيها منح نصارى القدس أماناً لأنفسهم وكنائسهم وصلبانهم ، فلا تسكن ولا تهدم ولا ينتقص منها ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ... »[2] .

هذا هو موقف الإسلام من غير المسلمين ، أكانوا مواطنين في دولته أو كانوا شعوباً ودولاً أخرى ما داموا مسالمين ومعاهدين وقد وفوا بالعهود المبرمة مع المسلمين ، وذلك لأن الإسلام لا ينكر على الآخرين بقاءهم على عقائدهم تبعاً لقاعدة أساسية في القرآن الكريم تقول : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ [البقرة : ٢/٢٥٦] ، والعدل في الإسلام للجميع أكانوا مسلمين . أم لم يكونوا تبعاً لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ، شهداء

(١) كتاب التعصب والتسامح ـ محمد الغزالي ص ٣٨ .

(٢) الطبري ٣/٦٠٩ .

بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى .... ﴾ [المائدة : ٥/٨] .

لقد تأكد لنا نظرياً وتشريعياً من مصادر الإسلام الأساسية قرآناً وسُنَّة أن الإسلام يقبل عن رضى بوجود أديان وعقائد مغايرة له ، ويُقرّ مبدأ الحرية الدينية ، مما يوجد في المجتمع الإسلامي وعلى صعيد الإسلام تعددية دينية وعقائدية .

وقد أكدت سياسة المسلمين من الناحية التنفيذية والتطبيقية هذه التعاليم والتشريعات تنفيذاً لما سبق ذكره ولما يؤكده قوله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين ﴾ [المتحنة : ٦٠/٨] .

إذا قرأنا أو سمعنا ما يخالف ذلك ودون وجود مبررات أخرى ، فإنما هو شذوذ عن القاعدة وخروج عن المبادئ والتعاليم من حاكم مستبد أو فاسد يسيء في حكمه للمسلمين ولغير المسلمين .

إن التفاهم والتعايش قائمان في المجتمعات الإسلامية بين المسلمين وغيرهم منذ العصر الإسلامي الأول وحتى اليوم . كما تقوم العلاقات بين دولة الإسلام أو دوله وبين الدول الأخرى على الاحترام المتبادل وتنفيذ المعاهدات والأعراف المتفق عليها بين الطرفين .

إن الإيمان الصادق والرغبة المخلصة في إمكانية هذا التفاهم وذلك التعايش لدى المسلمين ، لا نجد لها مثيلاً في درجتها الإنسانية لدى أي مجتمع آخر ، نظراً لغرس معاني هذا الإيمان وتلك الرغبة عند المسلمين منذ صغرهم حيث يُنشَّؤون على ذلك ويُربَّون على أن هذا الأمر هو جزء من عقيدتهم ، يُلْزِمُهم به دينهم فيرون في حياة التفاهم والتعايش مع الآخرين أمراً طبيعياً مألوفاً لا غرابة فيه ولا ينبع من مجاملة أو رياء بل هو جزء من عقيدتهم يؤمنون به كإيمانهم بأركان دينهم .

إن المسلم يقرأ وجوب هذا التفاهم والتعايش مع المخالفين لعقيدته في قرآنه الكريم ، وفي أحاديث رسوله ﷺ ويرى ذلك عملياً في سيرة الرسول ﷺ وصحابته الراشدين بل ويقرأ في

كتابه الكريم فضلاً عن احترام عقائد المخالفين والاعتراف بالحرية الدينية ، ما يدعوه إلى حسن الحوار واللطف بالموعظة والجدال من ذلك قوله تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي أحسن ﴾ [النحل : ١٦/١٢٥] .

إن دراسة تاريخية للإسلام توضح للدارسين أن تاريخ الإسلام لم يعرف الحروب الدينية ولا حرب القوميات والألوان ، فالأجناس والعروق المتعددة لم تعرف على صعيده تفضيل جنس على آخر اللهم إلا إذا كان التفضيل بعلم نافع أو عمل صالح ، وسرعان ما انتشر الإسلام دون إكراه ولا اضطهاد وبقي من شاء على دينه وظهر من هؤلاء كثير من العلماء وأصحاب المناصب وشكل الجميع مجتمعاً تعددت قومياته وأديانه ومذاهبه وتوحدت لحمته وأواصره .

هذا المجتمع الإسلامي بدأت تتشكل صورته الإنسانية منذ عهد الرسول ﷺ فارتفعت فيه مكانة عبد حبشي هو بلال مؤذن رسول الله ﷺ ومن أقرب الصحابة إليه ، وكذلك كان صهيب الرومي ، وسلمان الفارسي والمولى زيدُ بن حارثة أحدُ

قادة جيش مؤتة وابنُه أسامةُ قائدُ آخر جيش أعده الرسول ﷺ لتأديب الروم وتحرير بلاد الشام من حكمهم ، وكان تحت قيادته عدد من كبار رجالات قريش أمثال أبي بكر وعمر . إن ما يقدمه الإنسان من خدمات وتضحيات للآخرين هو الذي يزيده بينهم رفعة ومنزلة ومكانة .

ونتيجة لنظرة الإسلام هذه ، بقيت علاقة المسلمين بالنصارى علاقة طيبة مميزة وزاد في تقوية أواصرها ما تلاه المسلمون في قرآنهم من قوله تعالى : ﴿ ... ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسّيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴾ [المائدة : ٥/٨٢] .

إن نظرة الإسلام الإنسانية شملت حتى الحالات الاستثنائية كحالة الحرب فأَمَر أتباعه بالبعد عن كل عمل يؤدي إلى ظلم الأبرياء والضعفاء من نساء وشيوخ وأطفال ومدنيين عُزَّل ، فكانت وصايا الحكام لقادة جيوشهم مستمدة من وصايا رسولهم ﷺ ومن تعاليم قرآنهم الكريم من ذلك وصيةُ أبي بكر رضي الله عنه لقادة جيوشه المتجهة إلى بلاد الشام : « لا تخونوا ،

ولا تغدروا ، ولا تغلّوا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة .. وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له »[1] .

هذه نظرة الإسلام إلى الأعداء في حالة الحرب ، فكيف تكون إذن نظرته للأصدقاء والمحالفين والمسالمين له في حالة السلم ؟

لقد وردت هذه الوصية الموجهة من الخليفة أبي بكر رضي الله عنه إلى جيش أسامة بن زيد رضي الله عنه في نشرة أصدرتها اللجنة الدولية للصليب الأحمر في جنيف جعلت عنوانها « من ذاكرة التاريخ العربي الإسلامي » تقول في مقدمتها : إن إطلالة واعية على التراث العربي الإسلامي تؤكد لنا حرصه على التمسك بالناحية الإنسانية ، واحترام حقوق المقاتلين ، والرفقِ بالضحايا ومعاملتِهم معاملة إنسانية ، وهو في ذلك يتفق مع القانون

(١) الطبري : ٣/٢٢٦ .

الدولي .. وإن النظرة المتأنية لتبين بجلاء ووضوح مدى حرص شريعة الإسلام السمحاء ، وحرصِ قادة جيوش المسلمين على احترام إنسانية الخصم ، سواء كان هذا الخصم مقاتلاً أو أسيراً أو مدنياً أعزل ، مما يؤكد أن هذه الشريعة كانت إحدى الموارد التي نهل منها القانون الدولي الإنساني قواعده ومبادئه السامية .

وأثبتت النشرة هذه في صفحاتها بعض النصوص التراثية الإسلامية ، وأثبتت إلى جانبها ما يتفق معها من مواد القانون الدولي الإنساني المعاصر ونصوصه وهو الذي يعتمد - كمصدر له - على اتفاقيات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩م وعلى البروتوكولين الملحقين الصادرين عام ١٩٧٧م وعلى مبادئ القانون الدولي كما استقر بها العرفُ ومبادئُ الإنسانية .

أوردت نشرة الصليب الأحمر في مقدمتها بعض أقوال الرسول الكريم محمد ﷺ لأمراء الجند ووصاياه لهم ، ووصايا بعض قادة المسلمين ، وأضافت بأن الأمر لم يقف عند هذا الحد بل يأتي الفقه الإسلامي مُفَرِّعاً على هذه الأحكام فروعاً من ذلك ما ذهب إليه الإمامان مالك والأوزاعي من أنه : لا يجوز بحال

من الأحوال قتل النساء والصبيان من الأعداء ، ولو تترَّس بهم أهل الحرب . وتضيف هذه النشرة بأن القيم والمبادئ الإنسانية مستقرةٌ في الفقه الإسلامي الذي أرسى قواعد المعاملة الإنسانية للعدو الذي لا يستطيع قتالاً وميَّز بين المقاتلين وغير المقاتلين ، وضمن حصانة المبعوثين والرسل ، ومنع الخيانة في الحرب ثم أتت النشرة على أمثلة من التاريخ العربي الإسلامي توضح وتؤكد على كل حالة من هذه الحالات .

ومما أوردته نشرة اللجنة الدولية للصليب الأحمر الخبر التالي : حمل عقبة بن عامر الجهني إلى الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه رأس أحد القتلى من المشركين ، فغضب أبو بكر لذلك وكتب إلى قواده : « لا يُحمل إلي رأس وإلا بغيتم - أي جاوزتم الحد للتشفي - ولكن يكفيني الكتاب والخبر »[1] .

(١) نقلاً من كتاب السير الكبير ، لمحمد بن الحسن الشيباني وبهذه المناسبة نذكر أنه تأسست في غوتنجن بألمانيا جمعية الشَّيباني للحقوق الدَّولية ، ضمت علماء القانون الدولي والمشتغلين به في مختلف بلاد العالم وهدف الجمعية التعريف بالشيباني وإظهار آرائه في هذا المجال ونشر مؤلفاته المتعلقة بذلك .

وأوردت هذه النشرة أيضاً وصية من وصايا الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول فيها : « إذا هزمتموهم ، فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل ، ولا تهتكوا ستراً ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً ، ولا تعذبوا النساء بأذى وإن شتمنكم وشتمن أمراءكم ، واذكروا الله لعلكم ترحمون »[1] .

وتذكر النشرة مقابل كل نص من هذه النصوص العربية الإسلامية المادة أو المواد التي تماثلها أو تقاربها من اتفاقيات جنيف والبروتوكولات الملحقة بها .

هذه المواقف من تعاليم الإسلام التي أشارت إليها نشرة الجمعية الدولية للصليب الأحمر هي مواقف من الأعداء وفي حالة الحروب فما بالنا بمواقف الإسلام مع الشعوب الصديقة والمحالفة والمعاهدة ، وإذا قيل وبضدها تتميز الأشياء ، فلنقارن هذه التعاليم والوصايا والمواقف السلوكية بمواقف الآخرين ولننظر ولنسأل بقايا الهنود الحمر في أمريكا ماذا حلّ بأجدادهم على

(١) نقلاً عن شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .

أيدي غزاة العالم الجديد من مدّعي حملة الحضارة الأوربية[1] . ولنسأل أبناء إفريقية ماذا أصاب آباءهم على أيدي الأوربيين وخاصة بعد الكشوف الجغرافية ، ولنسأل مياه الأطلسي كم طوت لججها من جثث أولئك الذين قضوا نحبهم مكبلين بالحديد وتحت سياط التعذيب أثناء نقل قوافلهم المسروقة والمخطوفة إلى العالم الجديد ليكونوا عبيداً يُسخّرون للعمل في مزارع الأسياد من البيض الأوربيين[2] . ولنسأل جبال الجزائر ومغاراتها كم قضى فيها قتلاً وحرقاً وخنقاً الآلاف من النساء والشيوخ والأطفال ولنسأل الجزائريين عن طرق الإبادة من البساط المطوي إلى الأرض المحروقة كم أبادت من أبناء الشعب الجزائري المدنيين والعزّل من السلاح .

ولنسأل أرض ليبيا وصحراءها وجبلها الأخضر وشيخ

(١) أبيد منهم ٦٠ مليوناً من أصل ٨٠ مليوناً بالعمل الإجباري والأوبئة والأسلحة . كما ورد في كتاب الأساطير المؤسّسة للسياسة الإسرائيلية لمؤلفه روجيه غارودي ص١٥٧ .

(٢) يتراوح عدد هؤلاء من ١٠٠ إلى ٢٠٠ مليون كما ورد في المصدر السابق ص ١٥٧ .

جهادها المختار ماذا حل بها وبأبنائها خلال ما يسمونه حملات التمدين والتحضير .

ولنسأل المدنيين العزل من سكان هيروشيا وناغازاكي ماذا حل بهم كهولاً ونساءً وأطفالاً بعد أن نزلت بأرضهم قنابل أمريكا الذرية[1] .

اسألوا مدينة القدس حين دخلها الفرنجة واستباحوها وخاضت خيول فرسانهم بدماء السكان المدنيين العزّل وقارِنوا هذا الموقف بموقف معاكس حين دخل مدينة القدس صلاح الدين محرراً .

اسألوا عن حصاد الحربين العالميتين من المدنيين المسالمين ومن مشوهي هاتين الحربين . اسألوا حجارة قبية ودير ياسين والحرم الإبراهيمي والساجدين فيه والمتعبدين اسألوهم ماذا فعل بهم دعاة العقائد ودعاة السلام ، اسألوا مخيمات صبرا وشاتيلا ،

(١) أدت قنابل هيروشيا وناغازاكي الذرية إلى مقتل أكثر من ٢٠٠ ألف إنسان وما يقرب من ١٥٠ ألف جريح محكومين بالموت وما تزال آثار ذلك الدمار والهلاك مستمرة حتّى اليوم ، كما ورد في المصدر السابق ص١٥٨ .

وأبناء القرى في جنوب لبنان ، اسألوا ضحايا قانا والنبطية وسيارات الإسعاف ماذا نزل بهم من طالبي الأمن والسلام .

اسألوا ضحايا البوسنة والهرسك من فتيات وأطفال وشيوخ ونساء وشباب .

اسألوا محكمة لاهاي الدولية عن القبور الجماعية التي انتشرت في البوسنة والهرسك ...

اسألوا هؤلاء وأولئك جميعاً نصل وإياكم إلى ما في الدلاء من أنواع المياه فمنها عذب فرات ومنها ملح أجاج .

لقد كتب الكثيرون من مسلمين وغير مسلمين عن حسن العلاقة وجميل التفاهم وطيب التعايش بين المسلمين وغيرهم في دولة الإسلام منذ نشأتها أكان غير المسلمين مواطنين فيها أم كانوا في دول أخرى . من ذلك ماقاله الكونت هنري دي كاستري : « إن الدولة الإسلامية لما استقرت في الشرق لم تعارض المسيحية ، ولم تضع أمام بنيها عائقاً ، وظلت روما حرة في مراسلاتها مع الأساقفة الخاضعين لحكم المسلمين » . ويقول أيضاً : « لقد درست تاريخ النصارى في بلاد الإسلام وخرجت منه

بحقيقة مشرقة ، هي أن معاملة المسلمين للنصارى تدل على لطف في المعاشرة ، وترفع عن الغلظة ، وعلى حسن مسايرة ورقة مجاملة .. وهذا إحساس لم يُؤثَر عن غير المسلمين . فإن الشفقة والحنان كانا يعتبران لدى الأوربيين عنواناً للضعف ، وهذه ملاحظة لا أرى وجهاً للطعن بها ..»[1] .

يقول أحد علماء المسلمين : « كيف لا نكره التعصب ونحن المسلمين أشدُّ الأمم تعرضاً لآثامه وآلامه »[2] .

إن الإسلام ليفخر بأن أرضه لم تشهد أي لون من ألوان الاضطهاد الديني ويعود الفضل في ذلك إلى تعاليم الإسلام التي كفلت الحرية الدينية للجميع ولم تفرق في ذلك بين أكثرية وأقلية فليست القضية هنا - كما يقال ديمقراطية - أي تُطبق الأكثرية فيها ما تريد بل هي حرية شخصية للإنسان أن يعتقد ما يشاء دون أي إكراه أو اضطهاد أو إلزام برأي الأكثرية وعقيدتها ، وهذه ميزة يفخر بها المجتمع الإسلامي .

(١) التعصُّب والتَّسامح ص ١٥٣ و ١٥٥ محمد الغزالي .

(٢) محمد الغزالي في كتابه التعصب والتسامح ص ١٧٦ .

وإذا قرأنا في تاريخ بلاد المسلمين أخبار فتنة دينية أو مذهبية - على قلة ذلك وندرته - فهي بفعل أصابع غريبة تحركها دول أجنبية لها في المنطقة أطماع فتعمل على نشر الشائعات وزرع الأحقاد مستغلة حالات الجهل والتخلف فتشعل النار في الهشيم ولا يد للإسلام وللمسلمين في ذلك ، بل نجد في مثل هذه الحالة يقف علماء المسلمين وأصحاب الوعي منهم لقمع الفتنة في مهدها وإطفاءِ نارها[1] لأنهم يعلمون أن الفتنة أشدُّ من القتل - كما ورد في قرآنهم الكريم - .

وخلاصة القول :

إن حياة التفاهم والتعايش بين الأفراد في المجتمع الواحد وبين الشعوب المختلفة بعقائدها لا تقوم - كما يراد لها إنسانياً - إلا أن يؤمن الجميع بالتعددية العقائدية ضمن المبدأ الخالد ﴿ لا إكراه

(١) وهذا ما حدث خلال حوادث عام ١٨٦٠ في دمشق . وارتفع في هذه الحوادث اسم الأمير عبد القادر الجزائري وبعض علماء دمشق في منع الاعتداء على غير المسلمين وإطفاء الفتنة في مهدها ، مما لا نجد له مثيلاً في الحوادث المشابهة في أوربة .

في الـدين ﴾ [البقرة : ٢٥٦/٢] ، ولا تتم عملية التعايش هـذه كما يجب إلا بوجود تسامح حقيقي ـ لا ظاهري ـ لدى جميع الأطراف . وقد رأينا أن الإيمان بالتعددية العقائدية ، وبالدعوة إلى التسامح والمحبة والمودة كل ذلك مما توافر في صلب عقيدة الإسلام وأكدت عليه آيات قرآنية وأحاديث شريفة وسلوكية مستمرة ، مما جعل تعاليم الإسلام مثالية في هذا المجال وطالما قرأنا من خلالها التأكيد على معاني التسامح والصفح والعفو والإحسان تنفيذاً لقوله تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ [فصلت : ٣٤/٤١] . وقول رسول الله ﷺ : « إني أُرسلتُ بحنيفية سمحة »[1] .

وبالنسبة لنظرة التعايش والتفاهم مع الشعوب والدول الأخرى في تعاليم الإسلام واضحة لا لُبس فيها ولا غموض كما رأينا ونؤكدها بقوله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ،

(١) رواه الإمام أحمد .

وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولَّوهم ، ومن يتولَّهم فأولئك هم الظالمون ﴾ [الممتحنة : ٨/٦٠ ـ ٩] .

ولم ينزل الوحي على رسول الله ﷺ بالآيات التي تأذن بالقتال إلا بعد أن اشتد على المسلمين ظلم المشركين وأذاهم ﴿ أُذِنَ للذين يُقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربُّنا الله .. ﴾ [الحج : ٣٩/٢٢ ـ ٤٠] . ونزلت الآيات الكريمة تأمر المسلمين بقتال الذين يقاتلونهم للدفاع عن أنفسهم : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ [البقرة : ١٩٠/٢] .

هذه هي مواقف الإسلام من الآخرين أفراداً وشعوباً فهل تماثله عقيدة أخرى أو نظام آخر بالرغبة في التفاهم والتعايش مع الشعوب وتوفير العوامل المؤدية إلى نجاح هذا النوع من الحياة الإنسانية الآمنة .

وربما كان من المفيد أن أختتم هذا البحث بأقوال لبعض العلماء الغربيين حول الموضوع نفسه .

يقول أستاذ اللغة العربية والتاريخ الإسلامي في جامعة باريس ڤانسان مونتيه : « إن من أسباب اعتناقي للإسلام ، تسامح الإسلام تجاه أبناء الأديان الأخرى »[1] .

ويقول المستشرق الألماني أولرش هيرمان : « إن الذي لفت نظري أثناء دراستي لفترة العصور الوسطى هو درجة التسامح التي يتمتع بها المسلمون وأخص بالذكر هنا صلاح الدين الأيوبي »[2] .

ويقول روبرتسون : « إن أتباع محمد ﷺ هم الأمة الوحيدة التي جمعت بين التحمس في الدين والتسامح فيه . أي أنها مع تمسكها بدينها لم تعرف إكراه غيرها على قبوله »[3] .

هذه أقوال منصفة من غربيين عرفوا الإسلام والمسلمين من خلال دراساتهم وهي إن دلت على شيء فإنما تؤكد ما أشرنا إليه في الصفحات السابقة من إيمان المسلمين بأن التفاهم والتعايش

(١) كتاب التسامح في الإسلام د . شوقي أبو خليل ص ١٢٣ .
(٢) المصدر السابق ص ١٢٤ .
(٣) المصدر السابق ص ١٢٤ نقلاً عن حاضر العالم الإسلامي .

وحب الخير للناس جميعاً أفراداً وشعوباً مسلمين وغير مسلمين إنما هي أخلاق يدعوهم إلى التحلي بها دينهم وتصدر عنهم عن صدق وإخلاص وإيمان .

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾
[التوبة : ٩/١٠٥] .

الإِسْلاَمُ
والتَّفاهُمُ
والتَّعايشُ
بَيْنَ
الشُّعوب

الدكتور شوقي أبو خليل

تَمْهِيدٌ

الحمد لله وكفى ، وسلام على عبده محمد المختار المصطفى ، وعلى كلِّ من اهتدى فاقتدى ، وسار على منهاج الصِّراط فوفّى ووَفَى ، وبعد ..

حينما قدَّمت سلسلة (غزوات الرَّسول الأعظم ﷺ) بمناسبة القرن الهجري الخامس عشر ، جعلت في الصَّفحة الأُولى من كلِّ جزء من أَجزائها العشرة ، الكلمات التَّالية : ما بدأ النَّبيُّ ﷺ حرباً قط ، إذ كان حريصاً ألاَّ يراقَ دمٌ إنساني ، فهو نبيُّ المرحمة ، ولكن إذا كانت لا محالة واقعة ، كان رَجُلَها الأوَّل ، فهو نبيُّ الملحمة .

لقد كان ﷺ عظيماً في رحمته بالنَّاس ، عظيماً في استعداده للحرب ، عظيماً في خططه ، عظيماً في تحقيق النَّصر واستثماره .

وسألني زميل : كيف نثبت هذه الكلمات باختصار شديد ؟

قلت له مجيباً :

ما أراد ﷺ حرباً ، ولكن عندما كان يحين وقتها ، كان ﷺ رَجُلَها ، وقائداً مثاليّاً بارعاً ، قال عليٌّ رضي الله عنه : لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ ، وهو أقربنا من العدو ، كُنَّا إذا حمي البأس ، ولقينا القوم ، اتقينا برسول الله ﷺ .

لقد بدأ ﷺ دعوته في مكّة المكّرمة بالكلمة الطَّيبة ، والفكرة تُغْرَسُ في العقول والنُّفوس ، عرض نفسه في موسم الحجِّ على القبائل ، فاستجاب نفرٌ من الأوس والخزرج من أهل يثرب .

ثلاثَ عشرةَ سنة أذى ، وظلم واضطهاد ، ورفض لحرية العقيدة ، وكان الحث على الصَّبر والالتزام به في الآيات المكيَّة كثيراً جدّاً : ﴿ فاصبر كما صبر أُولو العزم من الرُّسل ولا تستعجل لهم ﴾ [الأحقاف : ٣٥/٤٦] .

هاجر ﷺ ـ ومن أسلم في مكة المكرَّمة ـ إلى المدينة

المنوَّرة ، فصادرت قريش أموالهم ، مضيفة ظلماً جديداً إلى مظالمها السَّابقة ، وفي المدينة المنوَّرة أعلن ﷺ حرباً اقتصاديَّة بدأتها قريش منذ حصارها للمسلمين في شِعْب أبي طالب ، ليرغمها على الاعتراف بحقّ المسلمين في نشر دعوتهم .

لقد كانت آيات الله تأمر بالصَّبر على الأذى ، والصَّفح عن الجاهلين ، على الرَّغم من اضطهاد قريش للمسلمين ، فلما عتت قريش ، وردَّت ما أراده الله لها من الكرامة ، وكذَّبت المؤمنين الَّذين اعتصموا بدين الله ، أَذِن الله عزَّ وجلَّ لرسوله ﷺ وللمسلمين في القتال :

﴿ أُذِنَ للَّذين يُقاتَلون بأنَّهم ظُلِمُوا وإنَّ اللهَ على نصرهم لقدير ، الَّذينَ أُخرِجُوا من ديارهم بغير حقّ إلاّ أن يقولوا ربنا الله .. ﴾ [الحج : ٣٩/٢٢ ـ ٤٠] .

﴿ وَقاتِلُوا في سبيلِ اللهِ الَّذينَ يقاتلونكم ولا تعتدوا إنَّ اللهَ لا يحبُّ المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرِجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشدّ من القتل ﴾ [البقرة : ١٩٠/٢ ـ ١٩١] .

هـاجر ﷺ ، وهـاجر المسلمون ، تـاركين أموالهم وأملاكهم بمكة المكرّمة ، وشكّل فقراء المهاجرين في المدينـة المنوّرة (أهل الصُّفّـة) ، لا منـازل ولا مـال ولا أهل ، أربـع مئـة ينـامـون في المسجد ، ومن هؤلاء كانت السّرايا الأُولى حينما بدأ ﷺ حصـاراً اقتصادياً ، خصَّ به قريشاً فقط ، وليست قبيلة أُخرى ، « هذه عير قريش » ، قريش بالـذّات ، وليس عير أيّـة قبيلـة أُخرى ، وما أكثرها من قبائل تسكن الحجاز وتهامة ونجد ..

حصـار اقتصـادي ، والحرب معلنـة بين المسلمين وقريش ، لقـد رأى أبو جهل سعـدَ بن معـاذ رضي الله عنـه وهـو يطـوف بمكّة ، فقال : مالي أراك تطوف بمكّة آمنـاً وقـد آويتم الصُّبـأة ، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينـونهم ، أمـا والله لـولا أنّـك مـع أبي صفـوان [أُميّـة بن خلف] ، مـا رجعت إلى أهلـك سـالمـاً ، فقال لـه سعـد ، ورفع صوتـه عليـه : أمـا والله لئن منعتني هـذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه ، طريقك على المدينة .

فبـدْءُ الاشتبـاكات المسلّحـة بين المسلمين والمشركين أمر طبيعي بعد تمايز المجتمعين ، وعند بدئها لم تجد قريش مفاجـأة ،

فـالأمر طبيعي فلم تنكره ، ولم تنكره القبـائـل كلّهـا ، لأنّهـا تـدري مـا فعلت قريش بـالمسلمين من اضطهـاد وتعـذيب ، ومطاردة ومصادرة .

سمع ﷺ بـأبي سفيـان مقبـلاً من الشّـام في تجـارة لقريش عظيمـة ، وفيهـا ثلاثون أو أربعون رجـلاً ، فنـدب ﷺ المسلمين إليها ، وقال : « هذه عير قريش فيهـا أموالهم ، فـاخرجوا إليهـا لعل الله ينفلكموهـا » ، فـانتـدب النّـاس ، فخف بعضهم وثَقُـل بعضهم ، وذلـك أنّهم لم يظنّوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربـاً ، وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسّس الأخبار بنفسـه ، ويسأل من لقي من الرُّكبـان تخوّفـاً على عير قريش ، حتّى أصاب خبراً من بعض الرُّكبان أن محمداً قد استنفر أصحـابـه لـك ولعيرك ، فحذر عند ذلـك ، واستـأجر ضَمْضَمَ بن عمرو الغفـاري فبعثه إلى مكّـة ، وأمره أن يـأتي قريشـاً فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أنَّ محمداً قد عرض لها في أصحابه ، فخرج ضمضم إلى مكّة مسرعـاً ، فـأقبلت قريش ، وكانت بـدر الكبرى ٢ هـ ، حَيْث هُزِمت قريش ، وانتصر المسلمـون الّـذين مـا خرجـوا لقتـال ،

ولكنها سارت في شوّال ٣ هـ باتِّجاه المدينة المنوَّرة تريد ثأراً ، فكانت غزوة أُحُد ، وكان خطأ الرُّماة الَّذي قرَّر مصير المعركة ونتيجتها ، حيث دفع المسلمون ثمن مخالفة الرُّماة لأمر رسول الله ﷺ ، ولكن قريشاً يئست من القضاء على المسلمين ودعوتهم ، لقد كان ﷺ قائداً فذّاً ، جنَّب جنده الخطر المحقَّق في إفنائهم بمهارة وحنكة ، فانسحب أبو سفيان ومن معه ، مكتفياً بصورة فوز ، وسمعة انتصار .

وبعد أُحُد ، خرج ﷺ إلى بني النَّضير من يهود المدينة المنوَّرة يستعينهم في دية رَجُلَين بمقتضى نصِّ المعاهدة ، فقالوا له : نعم يا أبا القاسم ، نعينك ، وقد آن لك أن تزورنا وأن تأتينا ، ولكن حتَّى تُطْعَمَ وترجعَ بحاجتك ، وكان ﷺ جالساً إلى جانب جدار من بيوتهم ، فخلا بعضهم ببعض ، وقالوا : إنَّكم لن تجدوا الرَّجل على مثل هذه الحالة ، فَمَنْ رجل يعلو على هذا البيت فَيُلقي عليه صخرة فيريحنا منه ؟

عَلِم ﷺ بالخبر : نقتله ، ونأخذ أصحابه أسارى إلى مكَّة فنبيعهم من قريش ، فأجلاهم ﷺ عن المدينة المنوَّرة ، فقالوا :

نأبى إلاّ عداوة محمد وإلاّ قتاله ، وسار زعماؤهم إلى مكَّة يحرِّضون قريشاً على حرب رسول الله ، وقالوا : إنَّا سنكون معكم عليه حتَّى نستأصله ، وسجدوا للأصنام حتَّى تطمئن قلوب المشركين .

إن سياسة اليهود في الحجاز مرَّت في ثلاث مراحل :

١ ـ مهادنة ظاهريَّة عندما لمسوا قوة المسلمين .

٢ ـ الدَّسُّ بالسِّرِّ ، والتَّحريض بالخفاء .

٣ ـ العداء الظَّاهر ، ودعم القوى المعادية علناً ، حينما تسمح الظُّروف بذلك .

تجهزت قريش وأَتباعها من القبائل ، وتجهَّزت غطفان .. واقترح سلمان الفارسي رضي الله عنه حفر الخندق ، وبدأ المسلمون بحفره شمالي المدينة المنورة ، ورسول الله ﷺ ينشد ، محقِّقاً أجواء العمل الممتع :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلَّينا
فأنزِلَنْ سكينة علينا ... وثبِّت الأقدام إذ لاقينا
المشركون قد بغوا علينا ... وإن أَرادوا فتنة أَبينا

يَمُدُّ بها صوته ﷺ مكرِّراً لها : أَبينا ، أبينا .

اكتمل حفر الخندق ، وجاءت الأحزاب عشرة آلاف مقاتل ، والنتيجة بعد حصار شهر ريح في معسكر المشركين اقتلعت خيامهم : ﴿ ياأيُّها الَّذين آمَنُوا اذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذْ جاءتكُم جنودٌ فأَرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تَرَوْها وكان اللهُ بما تعملون بصيراً ﴾ [الأحزاب : ٩/٣٣] .

لقد تحوَّل الموقف بعد الخندق ٥ هـ ، لصالح المسلمين ، فامتلكوا المبادأة ، وصار ﷺ سيِّد الموقف ، وفي جوّ الحرب حيث يُشْهَرُ السِّلاح ، وتسقط الضَّحايا ، لا تبادل للرّأي ، ولا عرض للأفكار ، ولا لقاء هادئاً للتَّحاور ، فلا تنتشر المبادئ لتنافر القلوب ، لذلك سعى ﷺ إلى تهيئة الجوّ المناسب لانتشار الدَّعوة بالحوار ، فمد يده إلى قريش مظهراً منتهى الحنكة السِّياسيَّة ، والنَّظر البعيد ، مع منتهى المرونة والتَّسامح ، وكسب ﷺ الرّأي العام ، حينما اتَّجه إلى مكَّة المكرَّمة وقد ساق الهَدْيَ ليثبت للعرب كافَّة تعظيمه للبيت الحرام ، فجعل قريش قُبَالة خيارَيْن لا ثالث لهما :

- إمَّا أن تمنعهم من دخول مكَّة المكَّرمة .
- وإمَّا أن تسمح لهم بدخولها .

وفي كلا الخيارين سيكسب ﷺ الموقف ، فإن منعت قريش ، كَشَفَ ﷺ موقفها العدائي ، مثبتاً أَن جوَّ الحرب ليس من صنعه ، وإن دخلها ، فهذا انتصار سياسي إعلامي كبير .

لقد جعل ﷺ قريشاً في أَحرج موقف ، فهي بين الرَّفض والقبول سِيَّان ، وكان صلح الحديبية (ذي العقدة ٦ هـ) بعد مفاوضات دقيقة .

قال أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه : « ما كان فتحٌ في الإسلام أعظم من فتح الحديبية » ، إنَّ فتح مكَّة المكرَّمة سياسيّاً كان ٦ هـ ، وكان الفتح العسكري ٨ هـ .

لقد دخل في سنتَين - هما عُمُر ما نَفَّذته قريش من صلح الحديبية وأُلزمت به - في الإسلام ، مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر ، لقد كان معه ﷺ يوم الحديبية أَلف وأَربع مئة

مسلم ، وكان معه يوم الفتح ـ بعد سنتين فقط ـ عشرة آلاف ، لقد وقَّعت قريش في الحديبية على مصرعها ، معترفة بالمسلمين نداً لقريش زعيمة القبائل .

وحَيَّد ﷺ قريشاً ، وقيَّدها بصلح أملت هي بنوده ، وتفرَّغ لمن حرَّضها على قتاله ، وعلى استئصاله ، إنَّهم يهود خيبر ، حيث التَّجمع اليهودي الَّذي أعلن : عداوته للمسلمين ، وهؤلاء اليهود هم الَّذين عقدوا حلفاً مع غطفان ، مقابل نصف ثمار خيبر وتمرها ، فكانت غزوة خيبر (المحرَّم ٧ هـ) للقضاء على حلفهم قبل أن يداهموا المدينة .

ومما يذكر هنا ، أن المسلمين وجدوا في حصون خيبر صحائف متعدّدة من التَّوراة ، فجاء اليهود يطلبونها ، فأمر رسول الله ﷺ بدفعها إليهم .

يقول (إسرائيل ولفنسون) في كتابه (تاريخ اليهود ببلاد العرب ص١٧٠) بشأن الصُّحف المتعدِّدة من التَّوراة ، فجاءت اليهود تطلبها ، فأمر رسول الله ﷺ بدفعها إليهم : « ويدل هذا على ما كان لهذه الصَّحائف في نفس الرَّسول من المكانة

العالية ، ممَّا جعل اليهود يشيرون إلى النَّبيّ بالبنان ، ويحفظون له هذه اليد ، حيث لم يتعرَّض بسوء لصحفهم المقدَّسة ، ويذكرون بإزاء ذلك ما فعله الرُّومان حيث تغلَّبوا على أُورشليم وفتحوها سنة ٧٠م ، إذ أَحرقوا الكتب المقدَّسة ، وداسوها بأَرجلهم ، وما فعله المتعصِّبون من النَّصارى في حروب اليهود في الأَندلس ، حيث أَحرقوا أَيضاً صحف التَّوراة ، هذا هو البون الشَّاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم ، وبين رسول الإسلام » .

وهذا التَّسامح سبقه تسامح آخر حينما ترك صحائف اليهود المقدَّسة ، ولم يتعرَّض لها بسوء ، ولم ينظر لها نظرة غير طبيعيَّة ، مع شدَّة عداوة اليهود للمسلمين ، فقد سمح لبني النَّضير بعد غزوة أُحُد بحمل صحفهم عند جلائهم عن المدينة المنورة .

وبعد خيبر ، أَرسل ﷺ رسائله إلى الملوك والأُمراء ، يدعوهم إلى الإسلام ، وبعدها كانت مؤتة (جمادى الأُولى ٨هـ) ، وسببها : بعث ﷺ الحارثَ بن عُمَير الأَزدي إلى ملك بُصْرى بكتاب ، فلما نزل مؤتة ، عرض له شُرَحبيل بن عمرو الغسَّاني ، وهو من أُمراء قيصر الرُّوم على الشَّام ، وقتله ، ولم

يُقتل لرسول الله رسولٌ غيره ، فلما بلغ رسول الله ذلك اشتد الأمر عليه ، وجهّز جيشاً وسَيَّره إلى مؤتة لتأديب شُرَحبيل ، فالرُّسُل لا تُقْتَل في العُرْف الدَّولي .

وبعد ذلك كان فتح مكّة المكرّمة ، لأنَّ قريشاً نقضت بنود صلح الحديبية ، حينما ساعدت بني بكر على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ .

أمَّا تبوك (رجب ٩ هـ) ، فسببها أن جموع الرُّوم مع قبائل لخم وجذام وعاملة وغسَّان كانوا يريدون دولة الإسلام ، ولن يُتركُوا ليداهموا المسلمين في عقر دارهم ، لقد كانت تبوك حرباً وقائيَّة ، لما فيها من معاني القوّة والعزّة ، فكان النَّفير العام ، والتَّعبئة الشَّاملة في زمن عُسْرةٍ وحرٍّ .

لذلك قلنا في البدء : ما بدأ النَّبيُّ ﷺ حرباً قط ، إذ كان حريصاً ألاَّ يُراق دمٌ إنساني ، فهو نبي المرحمة .

ولكن إذا كانت لا محالة واقعة كان رجلها الأوَّل ، فهو نبيُّ الملحمة .

لقد كان عظيماً في رحمته بالنَّاس ، عظيماً في استعداده للحرب ، عظيماً في خططه ، عظيماً في تحقيق النَّصر واستثماره .

ولنا في الصَّفحات القادمة (نصوص تاريخيَّة) موثّقة ، عن (الإسلام والتّفاهم والتّعايش بين الشُّعوب) ، ومن أعصر إسلاميَّة مختلفة ، تطبيقاً لقوله تعالى :

﴿ لا إكراهَ في الدِّين ﴾ [البقرة : ٢/٢٥٦] .

﴿ وَقُولوا لِلنَّاس حُسْناً ﴾ [البقرة : ٢/٨٣] ، لكلِّ النَّاس دون تمييز .

﴿ ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أشياءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُوا في الأَرْضِ .. ﴾ [الأعراف : ٧/٨٥] ، لكلِّ النَّاس أيضاً ، والأدلَّة كثيرة جداً في كتاب الله المجيد .

☆ ☆ ☆

الإسلام والتَّفاهم والتَّعايش بين الشُّعوب

نصوصٌ تاريخيَّة

أيَّام رسول الله صلى الله عليه وسلم :

١ ـ العهد عند وصوله ﷺ إلى المدينة المنورة ، وادع فيه غير المسلمين ، عاهدهم وأقرَّهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم ، واشترط عليهم ، ومما جاء في هذا العهد : « وإنَّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم ، وإنَّه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة ، إلاَّ من ظلم أو أثم ، وإن الله جارٌ لمن بَرَّ واتقى ، ومحمد رسول الله .. »[1] .

٢ ـ بعث ﷺ خمس مئة دينار إلى مكَّة حين قحطوا ، وأمر بدفع ذلك إلى أبي سفيان بن حرب وصفوان بن أميَّة

(١) ابن هشام ١٠٦/٢ وما بعدها ، دار الجيل ـ بيروت ، ط ١٩٧٥ م .

ليفرِّقا على فقراء أهل مكَّة ، فقبل ذلك أبو سفيان وأبى صفوان ، وقال : ما يريد بهذا إلا أن يخدع شبابنا[١] .

٣ ـ أهدى ﷺ مع عمرو بن أميَّة الضمري إلى أبي سفيان تمر عجوة ، واستهداه أدَماً ، فقبل هديَّة رسول الله ﷺ ، وأهدى له الأدَم[٢] .

٤ ـ نصارى نجران ، ستون راكباً ، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم ، قدموا على رسول الله ﷺ المدينة ، فدخلوا عليه مسجده حين صلَّى العصر ، عليهم ثياب الحبرات (برود من اليمن ، جُبَب وأردية) في جمال رجال بني الحارث بن كعب ، قال بعض من رآهم من أصحاب النَّبيِّ ﷺ يومئذ : ما رأينا وفداً مثلهم ، ولما حانت صلاتهم ، قاموا في مسجد رسول الله ﷺ يُصلُّون ، فقال رسول الله ﷺ : دعوهم ،فصلُّوا إلى المشرق[٣] .

(١) شرح كتاب السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني ، إملاء محمد بن أحمد السَّرخسي ٩٦/١ ، تحقيق د . صلاح الدين المنجد ، طبع : معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ١٩٥٧ م .

(٢) المرجع السَّابق ٩٧/١ .

(٣) ابن هشام ١٥٨/٢ و١٥٩ .

٥ ـ أوصى رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة قائلاً إن ظفرت بثُمَامَة بن أثال فخذه ، وبينما كان ابن مسلمة مع عددٍ من المسلمين ببطن نخل من أرض نجد ، إذ هم في قوم يصنعون طعاماً ، وفيهم ثُمامة ، فأخذه محمد بن مسلمة ، وأوثقه ، وجاء به إلى رسول الله ، فلما أُتي به أمر رسول الله ﷺ فَرُبِط بسارية المسجد ، فخرج رسول الله ﷺ عليه ، فقال : مالك يا ثُمام ، هل أمكن الله منك ؟ فقال : قد كان ذلك يا محمد ، إن تقتل تقتل ذا دم ـ وهو بذلك يعترف بذنبه ، وأنه يستحق القتل ـ وإن تعف تعف عن شاكر ، وإن تسأل مالاً تُعْطَه ، فمضى رسول الله ﷺ وتركه ، حتَّى إذا كان من الغد مرَّ به ، فقال : مالك يا ثمام ؟ قال : خير يا محمد ، إن تَقْتُل تقتل ذا دم ، وإن تعف تعف عن شاكر ، وإن تَسْأل مالاً تُعْطَهُ ، ثمَّ انصرف رسول الله ﷺ ، فلما كان في الغد مرَّ به رسول الله ﷺ ، فقال : مالك يا ثُمام ؟ قال : خير يا محمد ، إن تَقْتُل تَقْتُل ذا دم ، وإن تعف تعف عن شاكر ، وإن تسأل مالاً تعطه ، فقال رسول الله ﷺ : أطلقوه ، قد عفوتُ عنكَ يا ثمام .

فخرج ثمامة حتى أتى حائطاً من حيطان المدينة ، فاغتسل فيه وتطهّر ، وطهّر ثيابه ، ثمَّ جاء إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد ، فقال : يا محمد ، لقد كنتَ وما وجْهٌ أبغض إليَّ من وجهك ، ولا دين أبغض إليَّ من دينك ، ولا بلد أبغض إليَّ من بلدك ، ثم لقد أصبحت وما وجه أحبّ إليَّ من وجهك ، ولا دين أحب إليَّ من دينك ، ولا بلد أحب إليَّ من بلدك ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، يا رسول الله إني كنت خرجت معتمراً وأنا على دين قومي ، فأسرني أصحابك في عمرتي ، فسيِّرني ، صلى الله عليك ، في عمرتي ، فسيَّره رسول الله ﷺ في عمرته ، وعلَّمه ، فخرج معتمراً ، فلما قَدِم مكَّة وسمعته قريش يتكلَّم بأمر محمد ، قالوا : صبأ ثمامة ، فقال : واللهِ ما صبوت ، ولكنني أسلمت وصدَّقت محمداً وآمنت به ، والذي نفس ثمامة بيده لا تأتيكم حبَّة [حنطة] من اليمامة ، وكانت ريف أهل مكَّة ، حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ ، وانصرف إلى بلده ، ومنع الحمل إلى مكَّة ، فجهدت قريش ، فكتبت إلى رسول الله ﷺ ، تناشده بصلة الرَّحم ممَّا

قاست من الجوع ، إلاَّ كتب إلى ثمامة يخلي لهم حمل الطعام فكتب إليه رسول الله ﷺ .

ولما ارتد أهل اليمامة عن الإسلام ، لم يرتد ثمامة ، وثبت على إسلامه ، هو ومن اتَّبعه من قومه ، وكان مقيماً باليمامة ينهاهم عن اتِّباع مسيلمة وتصديقه ويقول : إياكم وأمراً مظلماً لا نور فيه ، وإنَّه لشقاء كتبه الله عزَّ وجلَّ على من أخذ به منكم ، وبلاء على من لم يأخذ به منكم يا بني حنيفة ، وانضمَّ إلى جيش المسلمين بقيادة العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه ، وقاتل معه[1] .

٦ - وفي نصِّ صلح الحديبية : « أن بيننا العيبة المكفولة ، وأنَّه لا إغلال ولا إسلال »[2] .

أي بينهم صدر نقي من الغل والخداع مطوي على الوفاء بالصُّلح ، والمكفولة المشرجة المشدودة ، وقيل : أراد أن بينهم

(١) أُسْدُ الغابة ١/٢٩٤ .
(٢) كتاب الخراج : ٢٢٨ .

موادعة ومكافة عن الحرب ، تجريـان مجرى المودة التي تكون بين المتصافين الذين يثق بعضهم ببعض .

ولا إغلال : أي لا خيانة ، ولا إسلال : ولا غارة ظـاهرة ، ولا سل للسُّيوف .

٧ ـ « حدَّثنا داود عن عكرمة عن ابن عباس أن النَّبي ﷺ كان إذا بعث جيوشه قال : لا تَقْتُلوا أصحاب الصَّوامع »[١] .

٨ ـ وجاء نصٌ صريح واضح يقول :

« دخل ﷺ على جاره اليهودي يَعُودُه »[٢] .

٩ ـ وبعـد غـزوة أُحُـد ، خرج رسـول الله ﷺ إلى بني النَّضير[٣] ، يستعينهم في ديـة قتيلَيْن من بني عـامر ، اللـذين قتلهما عمرو بن أميَّة الضمري ، للجوار الـذي كان رسول الله ﷺ قد عقده معهم ، والذي نصَّ على أن يعاونوه في الديـات ، وكان

(١) كتاب الخراج : ٢١٢ .

(٢) شرح كتاب السِّير الكبير : ١٥١/١ .

(٣) وهم قوم من اليهود بالمدينة .

مع رسول الله نفر من أصحابه[١] ، فقالوا له : نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببتَ مما استعنت بنا عليه ، وقد آن لك أن تزورنا وأن تأتينا ، ولكن حتّى تُطْعَمَ وترجع بحاجتك[٢] ..

١٠ ـ قام رسول الله ﷺ لجنازةٍ مرَّت أمامه ، فقيل لـه : إنَّه غير مسلم ، فقال ﷺ : « أَوَ ليسَ إنساناً »[٣] .

وقال ﷺ : « أنا شهيد أنَّ العبادَ كلَّهم إخوة »[٤] .

☆ ☆ ☆

عشر نقـاط ليس غير ، نكتفي بها كشواهـد على الاعتراف بالآخر واحترامه :

(١) دون العشرة ، السِّيرة الحلبيَّة : ٢٧٧/٢ .

(٢) إلى نهاية الأحـداث التي سبَّبت إجلاء بني النَّضير ، انظر : السيرة النبوية لابن كثير : ١٠٨/٣ ، الطبري : ٥٥٠/٢ ، عيون الأثر : ٤٨/٢ ، الكامل في التاريخ : ١١٩/٢ ، ابن هشام : ١٠٨/٣ ، البداية والنهاية : ٧٤/٤ .

(٣) البخاري في الجنائز : ١٣١٢ .

(٤) رواه ابن حنبل عن زيد بن أرقم رضي الله عنه .

لقد أقرَّ ﷺ الآخر على عقيدته ، وهو آمن على دمه وأهله وماله .

كما قرَّر مساعدة ماليَّة للمشركين حين قحطوا ، مع أنَّهم هم الذين أخرجوه من بلده ، وحشدوا له المقاتلين المشركين لقتله واستئصال الإسلام .

وكذلك فتح باب المودَّة بالهديَّة ، فالقلوب جبلت على حبِّ من أحسن إليها .

وأذن لنصارى نجران بدخول مسجده الشَّريف ، والصَّلاة فيه .

ولم يمنع قريشاً المشركة ، على الرَّغم من حالة الحرب بينهما ، أن تصلها إمدادات القمح من اليامة ، ولو شاء لحرمهم رغيف خبزهم .

فلا غدر ، ولا خيانة ، بل وفاء ومودَّة .

واحترام لأصحاب الصوامع ، الكهنة الذين فرغوا أنفسهم للعبادة في الأديرة .

مع ثبوت زيارته ﷺ للمرضى من غير المسلمين .

وأكْل ذبائح غير المسلم : ﴿ وَطَعَامُ الَّذينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَكُم ﴾ [المائدة : ٥/٥] .

وتوَّج ﷺ هذا كلَّه باحترام الإنسان (إنساناً) ، بغض النَّظر عن معتقده : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء : ٧٠/١٧] .

هذا ولا ننسى أن السُّنَّة الشَّريفة ، هي المصدر الرَّئيس الثَّاني للشَّريعة الغراء .

☆ ☆ ☆

أيَّامُ الرَّاشدين :

وصية أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه مشهورة معروفة : « قفوا أُوصيكم بعشر .. »[1] ، قالها رضي الله عنه لجيش أسامة بن زيد رضي الله عنه ، وقالها حينما بعث يزيد بن

(١) الوصيَّة في : الطَّبري ٢٢٦/٣ ، الكامل في التاريخ ٢٢٧/٢ .

أبي سفيان على رأس جيش إلى الشَّام : « إنِّي موصيك بعشرٍ فاحفظهن : إنَّك ستلقى أقواماً زعموا أنَّهم قد فرغوا أنفسهم للهِ في الصوامع ، فذرهم وما فرغوا له أنفسهم .. إلخ »[1] .

وفي فتوح العراق ، قال إياس بن قبيصة الطَّائي لخالد بن الوليد رضي الله عنه حينما وصل الحيرة : ما لنا في حربك من حاجة ، وما نريد أن ندخل معك في دينك ، نقيم على ديننا ، ونعطيك الجزية ، فصالحه على ستين ألفاً ورحل . على ألاَّ يهدم لهم بيعة ولا كنيسة ولا قصراً من قصورهم الَّتي كانوا يتحصَّنون فيها إذا نزل بهم عدوٌّ لهم ، ولا يُمْنَعُوَن من ضرب النَّواقيس ، ولا من إخراج الصُّلبان في يوم عيدهم ، وعلى ألاَّ يشتملوا على تغبة [القبيح والرِّيبة] ، وعلى أن يضيفوا من مرَّ بهم من المسلمين ، مما يحل لهم من طعامهم وشرابهم[2] .

ومما جاء في الكتاب الذي كُتِب بين المسلمين وأهل العراق :

(١) شرح كتاب السِّير الكبير ٤١/١ .

(٢) كتاب الخراج لأبي يوسف : ١٥٤ .

١ ـ لا جزية ـ قُبالة الحماية والمنع ـ على الزَّمنى ، أي على المرضى دائمي المرض ، وهم ألف رجل ، فأخرجهم العهد الذي أقرّه خالد بن الوليد رضي الله عنه من أيِّ تكليف .

٢ ـ ستة آلاف رجل يدفعون ستين ألف دينار ، أي عشرة دنانير في السَّنة ليس غير ، « وعلينا المنع لهم ، أي حمايتهم » .

٣ ـ وأيما شيخ ضَعُف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنياً فافتقر ، وصار أهل دينه يتصَّدقون عليه ، طُرِحَت جزيته ، وعِيلَ من بيت مال المسلمين وعياله ، ما أقام بدار الهجرة ، ودار الإسلام .

٤ ـ وفي جباية الجزية : « فإن طلبوا عوناً من المسلمين أُعِينُوا به ، ومؤونة العون من بيت مال المسلمين » .

ومثل هذا الكتاب ، ومثل هذه الشُّروط ، وقَّع أيضاً مع أهل عانات ، وقَرْقِيسِياء[1] : أعطاهم الأمان : « لا يهدم لهم

(١) عانات أو عانة : بلدة في العراق على الفرات الأوسط ، وقَرْقِيسِياء : بلدة في أرض الجزيرة بين الخابور والفرات ، [معجم البلدان ٧٢/٤ و٣٢٨] .

بيعــة ولا كنيســة ، وعلى أن يضربـوا نـواقيسهم إلاَّ في أوقــات الصَّلوات [عنـد المسلمين] ، ويخرجوا صلبـانهم في يوم عيـدهم ، فأعطاهم ذلك ، وكتب بينه [بين خالـد رضي الله عنـه] وبينهم [أهل هذه المدن العراقيَّة] الكتاب »[1] .

ومما قاله أبو يوسف في كتاب الخراج ١٥٩ : « ولم يرد ذلك الصُّلح على خـالـد أبـو بكر ، ولا ردَّه بعـد أبي بكر عمر ، ولا عثمان ، ولا علي رضي الله تعـالى عنهم أجمعين .. أمضـاه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم أجمعين » .

والعهد ذمَّة لمن حافظ عليـه ورعـاه والتزم بـه ، وإلاَّ فعلى غير المسلم ما على المسلم من قوانين نـافـذة ، ولقـد وردت نُصوص تخاطب غير المسلم « ليس على هذا عاهـدنـاكم » ، « مـا على هـذا صالحانكم »[2] ، وأيُّ مبدأ أسمى وأرقى من أن أُسـاويـكَ بنفسي ، لكَ ما لي ، وعليكَ ما عليَّ ؟

قال أبو يوسف ـ على سبيل المثـال ـ : الـذِّميُّ إذا استكره

(١) كتاب الخراج : ١٥٥ .

(٢) كتاب الخراج : ١٩٣ .

المرأة المسلمة على نفسهـا ، فعليـه من الْحَـدِّ مـا على المسلم في قول فقهائنا[1] .

و (العهــدة العمريَّــة) تكفينــا ، فعلى منـوالهـا وُقِّعَت المعاهدات مع أهل بلاد الشَّام ، ومع أهل مصر ، وخلاصتهـا أن الآخرين آمنـون على دمـائهم ونسـائهم وأبنـائهم وأمـوالهم ، ولهم بذلك ذمَّة الله وذمَّة رسوله ﷺ .

ونـذكر أن عمر بن الخطـاب رضي الله عنـه لمـا حـان وقت الصَّلاة وهو في كنيسة بيت المقـدس ، لم يصلِّ داخل الكنيسـة ، حفاظـاً منـه وضمانـاً لبقـائهـا ، وكي لا يقـال : هنـا صلَّى عمر ، وسنجعل مكان صلاته مسجداً ، لقد خرج رضي الله عنـه ليصلِّي بجوارها ، حيث بُنِيَ مسجد عمر .

ومرَّ عمر رضي الله عنـه في أرض الشَّام بقـوم مجـذومين من النصـارى ، فـأمر أن يُعْطَوْا من بيت مـال المسلمين ، وأن يجري عليهم القوتُ بانتظام[2] .

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ، ص : ١٣٥ .

ومرَّ عمر رضي الله عنه أيضاً بباب قوم وعليه سائل يسأل ، شيخ كبير ضرير البصر ، فضرب عضده من خلفه وقال : من أيِّ أهل الكتاب أنت ؟ فقال : يهودي ، قال : فما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسِّن ، فأخذ عمر رضي الله عنه بيده ، وذهب به إلى منزله ، فرضخ له بشيء من المنزل ، ثمَّ أرسل إلى خازن بيت المال فقال : انظر هذا وضرباءه ، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثمَّ نخذله عند الهرم ﴿ إنَّما الصَّدقاتُ للفقراء والمساكين ﴾ ، والفقراء هم المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب ، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه[1] .

وفي زمن الفتوح أيَّام عثمان رضي الله عنه ، هل أُجبرت أُمة على اعتناق الإسلام ؟ بل هل أُجْبِر فرد على الإسلام ؟ وهل أُلغي الآخر ، إمَّا اعتناق بعقيدة الفاتحين أو الفناء ؟ لا ، لا نجد ذلك .

(١) كتاب الخراج : ١٢٦ .

أيَّام الأُمويِّين والعبَّاسيِّين :

تُمثِّل أيام الوليد بن عبد الملك[1] أيَّام الفتوح العربية الإسلاميَّة في أقصى اتِّساعها ، حيث فُتِحَت شرقاً السِّند وما وراء النَّهر حتى كاشغر في إقليم سينكيانغ غربي الصين ، وفتحت طليطلة في شبه الجزيرة الإيبرية (إسبانية) ، وحوصرت القسطنطينية شمالاً .

ومثال التعامل مع الآخر ، والاعتراف بِهِ ، والتَّعايش معه بطمأنينة وهناء ، ما جاء في كتاب (فتح السِّند) ص ٨٦ ، حيث وصيَّة محمَّد بن القاسم الثَّقفي لجنده الفاتحين لحوض السِّند ، من الدَّيْبُل حتَّى الْبُنْجاب :

لا تقتلوا أحداً غير المسلَّح المحارب ، ومن كان بيده السِّلاح وهو هارب فخذوه أسيراً ، ومن أراد الأمان ، وأعلن الطَّاعة فاتركوه ، ولا تدخلوا البيوت الآمنة .

وتكرر في كتاب (فتح السِّند) : ثم أعطى ـ محمد بن

(١) الوليد : [٤٨ ـ ٩٦ هـ = ٦٦٨ ـ ٧١٥ م] .

القاسم الثَّقفي ـ الأمان للصُّنَّاع والتُّجار وعوام النَّاس ، وتركوا بعضاً من أسراهم ، وتشكَّلت محكمة لردِّ المظالم ، وترك البراهمة [رهبان المعابد وحكماؤها] ، وأعطاهم محمَّد بن القاسم الأمان شريطة أن يحضروا له كلَّ من يقع في أيديهم من أتباع داهر .

ثمَّ عيَّن (البراهمة) في مناصب تناسبهم ، وخصَّص لهم المال ، وأجلسهم في المحافل في الأماكن الَّتي كانت مخصَّصة لأُمراء الهند وملوكها .

أمَّا في أيَّام عمر بن عبد العزيز[1] ، فقضيَّة سمرقند لن نكرِّرها ، ولكن نكرِّر قائلين : إنَّها قضيَّة فريدة خالدة في تاريخ البشريَّة[2] .

وفي أيام الخلافة العباسيَّة استمرت معاني التَّسامح والتَّعايش والتَّفاهم مع الآخر ، فالمسألة مسألة عقيدة ودين ، لا توصيات ليستأنس بها .

(١) عمر بن عبد العزيز : [٦١ ـ ١٠١ هـ = ٦٨١ ـ ٧٢٠ م] .
(٢) القضيَّة في الطَّبري ٥٦٨/٦ .

ومن شواهد الاعتراف بالآخر ، حواره .

لقد كان البطريق النَّسطوري (طيماثاوس) يعقد مناظرات في المسائل الدِّينية بحضرة الخليفة الهادي ، الخليفة العبَّاسي الرَّابع[1] ، وبحضرة هارون الرَّشيد الخليفة العبَّاسي الخامس[2] ، وجمع (طيماثاوس) هذه المناظرات في كتاب ، وعلى الرَّغم من ذلك ، انتُخِبَ لكرسي البطركيَّة ، من قِبَلِ رجال الدِّين في كنيسته .

ووصلتنا وثيقة تدل على صورة واضحة من صور الدَّعوة إلى الإسلام بالحوار ، ترجع إلى عهد المأمون[3] ، وهي في صورة رسالة كتبها ابن عم الخليفة إلى عربي مسيحي كريم المحتد ، عظيم المنزلة في بلاط الخلافة ، وفي الرِّسالة لهجة تنمُّ عن الوُدِّ ، وفيها لغة تصوِّر بوضوح مسلك المسلمين السَّمح تجاه الكنيسة المسيحيَّة في ذلك العصر .

(١) الهادي : [١٤٤ ـ ١٧٠ هـ = ٧٦١ ـ ٧٨٦ م] .
(٢) الرَّشيد : [١٤٩ ـ ١٩٣ هـ = ٧٦٦ ـ ٨٠٩ م] .
(٣) المأمون : [١٧٠ ـ ٢١٨هـ : ٧٨٦ ـ ٨٣٣م] .

ونذكر القاضي البارع الرَّائع ، صاحب العلم والبديهة الحاضرة ، أبا بكر محمد بن الطَّيِّب الباقلاني[1] ومناظرته في عاصمة الرُّوم البيزنطيِّين (في القسطنطينيَّة) ، مع علماء النَّصرانيَّة فيها ، وبين يدي قيصرها .

وفي مطلع القرن الثالث الهجري ، عُقِدَ في مدينة (مرو)[2] حوار بين الأديان ، من غير مجاملات أو مداهنات ، جمع هذا الحوار الجاثيق كبير النَّصارى ، ورأس الجالوت زعيم اليهود ، والهربذ الاكبر ممثل الزَّرادشتيَّة ، وعمران الصَّابي قطب الصَّابئة ، والفيلسوف قسطاس الرُّومي ، وجمع من المتكلِّمين .

حوار سبقهُ الاعتراف بالآخر ، والعيش معه بحرِّيَّة وانفتاح .

☆ ☆ ☆

---

(١) القاضي الباقلاني [٣٣٨ ـ ٤٠٣ هـ = ٩٥٠ ـ ١٠١٣م] .

(٢) مَرْو : مدينة مشهورة في خُراسان ، [معجم البلدان ١١٢/٥] .

أيَّام الدَّولتَيْنِ النُّورِيَّةِ وَالصَلاحِيَّة :

إنَّ حياة الملكين العادِلَيْن : نور الدين محمود بن زنكي ، وصلاح الدِّين الأيوبي كلها قمم من التَّسامح والتَّفاهم والتَّعايش مع الآخر ، كما أمر الإسلام وأوصى ، ألا يكفي القول ، كما ورد في مصادر هذا العصر ـ على الرَّغم من الغزو الأُوربي الصَّليبي ووحشيَّته وآلامه ـ بحقِّ نور الدِّين :

كان المسيحيُّون يتنفَّسون الصّعداء عندما ترجع الأرض إلى أصحابها من يد الصَّليبيِّين ، إنسان عظيم ، هذَّبه الإسلام ورباه ، لم يَقس نفسه بأُولئك الجفاة القُسَاة الَّذين أساؤوا حتى إلى نصارى البلاد العربيَّة ، فظلَّت الكنائس في بلاده عامرةً بأهلها ، في حين كان الصَّليبيون إذا دخلوا بلداً ضيَّقوا على النَّصارى الأُرثوذكس من أهله ، فحرَّموا على كنائسهم ضرب النَّواقيس ، وآذَوْا القُسُسَ ، وحطُّوا منزلتهم ، فإذا عاد البلد إلى نور الدِّين تنفَّس نصاراه الصُّعداء ، وأَمِنُوا إلى عدله وإنصافه ، ولقد أكسبه إيمانه هذا احترام خصومه من الصَّليبِّيين ، فكانوا

على عداوتهم له يوقِّرونه ويعترفون له بالامتياز عليهم ، حتَّى قالوا : نور الدين فيه من الله سِرٌّ ، فإنَّه لا يظهر علينا بكثرة جنده وعسكره ، إنَّما يظهر علينا لصلته الوثيقة بالله ، حتَّى وليم الصّوري المؤرّخ الصَّليبي الحاقد على الإسلام وأهله ، لم يسعه إلاَّ أن يعترف بفضل نور الدين وعدله وصدق إيمانه .

نور الدين (الملك العادل) ، وأيُّ حديث عن عدله أسمى وأرقى من الحديث عن جلوسه أمام القاضي كمال الدين الشَّهْرَزُوري إلى جانب خصم من عامَّة النَّاس ، ادّعى أنَّه غصبه مُلْكاً له ، لقد ساوى القاضي بين المتخاصمين ، وتحاكما ، فلم يثبت للمدَّعي حقٌّ ، وثبت الْمُلْكُ لنور الدين ، فقال نور الدين حينئذ للقاضي ، ولمن حضر : هل ثبت له عندي حقٌّ ؟ قالوا : لا ، فقال : اشهدوا عليَّ أن قد وهبتُ له هذا الْمُلْك الَّذي حاكمني عليه ، وقد كنت أعلم أنَّه لا حقَّ له عندي ، وإنَّما حضرت معه كيلا يُظَنَّ أني ظلمته ، فحيث ظهر أن الحقَّ لي وهبته له .

ومن مآثره (دار العدل) أي ديوان المظالم ، لتهذيب كبار

قوَّاده ، وردِّهم عن أذى النَّاس ، كلِّ النَّاس ، إنَّها محكمة عليا يرأسُها نور الدين بنفسه ، وبابها مفتوح للنَّاس جميعاً ، بلا استثناء سببه دين أو جنس أو مذهب ، فالحقُّ هو الحقُّ ، يناله صاحبه بغض النَّظر عن دينه أو جنسه أو مذهبه[1] .

أمَّا صلاح الدين الأيوبي وسلوكه الرفيع مع الآخر ، فلقد قدَّمت النَّشرة الدَّوليَّة التي طبعتها (اللَّجنة الدَّوليَّة للصَّليب الأحمر) في جنيف عدَّة نصوص ، مقتبسة من كتاب (النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليوسفيَّة) لبهاء الدين بن شداد ، منها :

وكان ـ صلاح الدين الأيوبي ـ رحمه الله يحسن معاملة الأسرى ، ويخصُّ البارزين منهم بحسن المعيشة ، وخلع الثِّياب عليهم ، وحينما أحضر النَّاس قتلاهم بعد المعركة ـ بعد حطِّين ـ

(١) لترجمة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي ، انظر : الكواكب الدُّريَّة في السِّيرة النُّورية ، لابن قاضي شهبة ، دار الكتاب الجديد ، ط١/١٩٧١م ، والتَّاريخ الباهر في الدَّولة الأتابكيَّة ، لابن الأثير الجزري ، دار الكتاب الجديد ١٩٦٣ ، الرَّوضتين في أخبار الدَّولتين ، لشهاب الدين المقدسي ، دار الجيل ، بيروت ، مع الذيل على الروضتين لأبي شامة المقدسي ، دار الجيل ، ط٢/١٩٧٤م .

وكنتُ حاضراً ذلك المجلس ، أكرم رحمه الله المتقدِّمين منهم ، وأَخلع على مُقدِّمي عسكر الإفرنسيس فروة خاصَّة ، وأمر لكلِّ واحد من الباقين بفروة خرجيَّة لأنَّ البرد كان شديداً .

وحين تنتهي المعركة أو الحصار باستسلام الطَّرف الآخر ، كان ينفِّذ شروط الاستسلام بدقَّة ، بل ينفِّذها وفقاً لمصلحة المستسلمين أكثر ممَّا تتطلَّبه الشُّروط أحياناً ، وحين يدفع الأسرى فداءهم ، يرسل من يحرسهم حتَّى يصلوا إلى مأمنهم .

☆ ☆ ☆

أيَّامُ العُثْمانيِّينَ :

نكتفي بصورتَيْن اثنتينَ تعطيان المطلوب إثباته :

الصُّورة الأُولى : « ومن أُولى الخطوات الَّتي اتَّخذها محمد الثاني [محمد الفاتح] بعد سقوط القسطنطينيَّة وإعادة إقرار النِّظام فيها ، أن يضمن ولاء المسيحيِّين ، بأن أعلن نفسه حامي

الكنيسة الإغريقيَّة ، فحرَّم اضطهاد المسيحيِّين تحريماً قاطعاً ، ومنح البطريق الجديد مرسوماً يضمن له ولأَتباعه ولمرؤوسيه من الأَساقفة حقَّ التَّمتُّع بالامتيازات القديمة والموارد والهبات الَّتي كانوا يتمتَّعون بها في العهد السَّابق ، وقد تسلَّم جنَّاديوس أوَّل بطريق بعد الفتح العثماني من يد السُّلطان نفسه عصا الأُسقفيَّة الَّتي كانت رمز هذا المنصب ، ومعها كيس يحتوي على ألف دوقة ذهبيَّة »[١] .

وجاء أيضاً : « ما إن استقر محمد الفاتح في عاصمته الجديدة القسطنطينيَّة] حتّى أعلن أنَّه لا يعارض في إقامة شعائر ديانة المسيحيِّين ، بل إنَّه يضمن لهم حرِّيَّة دينهم ، وحفظ أملاكهم ، فرجع من كان قد نزح عن العاصمة ، ولما انتخبوا (جورج سكولاريوس) بطريقاً لهم ، احتفل محمد الفاتح بتنصيبه بالأُبَّهة نفسها ، والنِّظام نفسه الَّذي كان يعمل للبطارقة أيَّام قياصرة الرُّوم البيزنطيِّين ، وأعطاه حرساً من جنده الإنكشاريَّة ، ومنحه حقَّ الحكم في القضايا المدنيَّة والجنائية

(١) الدعوة إلى الإسلام ، للسِّير توماس آرنولد ، ص ٢٧٠ و ١٧١ .

بكافة أنواعها المختصَّة بالرُّوم ، وعيَّن معه مجلساً مشكَّلاً من أكبر موظفي الكنيسة ، وأعطى هذا الحقَّ في الولايات للمطارنة والقُسُس .

الصورة الثانية : وقعت حربٌ بين العثمانيّين والمجريّين ، فبحث جورج برانكوفتش عن جون هنيادي وسأله : ماذا تصنع لو انتصرت ؟! فأجاب : أؤسّس العقيدة الرُّومانيَّة الكاثوليكيَّة ، ثمَّ بحث عن السُّلطان العثماني ، وسأله : ماذا تصنع لديننا لو انتصرت ؟! فأجاب :

« أُقيم كنيسة إلى جانب كلِّ مسجد ، وأدع مطلق الحرِّيَّة لكلِّ فردٍ في أن يصلِّي في أيِّهما شاء »[1] .

☆ ☆ ☆

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ، ص ٢٢٣ ، عن :

Enripue Dupuy De lome: Eschauosy. Turgufa p.p 17-18 (Madrid 1877).

هذه النُّصوص التَّاريخيَّة الموثَّقة ، معينها :

﴿ وَلَو شاءَ رَبُّك لجعلَ النَّاس أمَّةً واحدةً وَلا يَزالُون مختلِفين ﴾ [هود : ١١/١١٨] .

ولو شاء سبحانه وتعالى لجعل النَّاس على منهج واحد في أمور العقيدة والإيمان ، ولكنه سبحانه تركَ النَّاسَ يختار كلٌّ منهم المنهج الَّذي يريد ، تبعاً لقناعاته وتفكيره ، والحساب عليه سبحانه وتعالى : ﴿ إلى الله مَرْجِعُكُم جَميعاً فَيُنَبِّئُكم بما كُنْتُم فيه تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة : ٥/٤٨] .

☆ ☆ ☆

خاتِمةٌ

الإسلامُ

ليس كَمَا يَزْعُمُ الغَرْبُ

« حين زرتُ معسكراتنـا مـؤخّراً ، سررتُ لأنَّ جنودنا لا يهدمون الكنـائس حين يهدم أعداؤهم المساجد ، ولا يغتصبون النِّساء حين يغتصب أعـداؤهم نسـاءهم ، ولا يقـابلُـون الإسـاءة لأسرى المسلمين بـالإسـاءة لأسرى الصِّرب والكروات » .

[علي عـزّت بيكـوفتش من حـوار مـع صحيفة (ليليـان) البوسنيّـة الأسبوعيّـة ، نوفمبر ـ تشرين الثاني ١٩٩٣م] .

التَّفـاهم والتَّعـايش بين الشُّعوب (الاعتراف بـالآخر) ، موضـوع مطروح في سـاحِ الحـوارات ، فهـو من مـوضـوعـات العصر ، إنَّه موضوع جـديـد بـالنِّسبـة للغرب ، ولكنـه جزء من عقيـدة المسلم ، وأُسٌّ من أُسس دينـه الَّـذي اكتمـل منـذ أكثر من

ألف وأربع مئة سنة ، وذلك بلا توفيق أو تلفيق أو مراوغة ، منصوص عليه في الكتاب المجيد والسُّنَّة المطهَّرة ، وطُبِّق واقعاً على مرِّ أعصر التَّاريخ الإسلامي ، وبدليل وجود غير المسلم في المجتمعات الإسلاميَّة بين المسلمين ، يعيش بسلام وطمأنينة على نفسه وأهله وماله وعرضه ودينه ومعتقده ، مع الاحترام لعاداته وشريعته ونبيِّه ودينه عامَّة .

ومن نُفي أو قُتِل ـ إن حدث ذلك عبر مئات السِّنين ـ نُفِي وقُتِل لخيانة أونكث لعهد موقَّع ، لا بسبب عقيدته ، بل لفعلته .

لقد عاش غير المسلم في ظل الحكم الإسلامي حياةً وادعة آمنة طبيعيَّة ، سَلِمت في ظل حرِّيَّة العقيدة الَّتي ضمنها الإسلام منذ سنواته الأُولى ، ولقد كان منهم الشُّعراء الَّذين لم يتحرَّج المسلمون عن رواية شعرهم ، كالأخطل في المشرق ، وأبي إسحاق إبراهيم بن سهل الإشبيلي في المغرب .

والفتوحات لم تكن لفرض عقيدة كما هو في الغرب ، وهذا بحثناه وناقشناه في أكثر من موضع من الكتب الَّتي قدَّمنا ، فلن

نكرر هنا ، وشتَّان بين سيف يعمل كمبضع جرَّاح يستأصل العفن من القروح ، وسيف يعمل كسكين جزَّار ، يستأصل الأصحاء ويبقي العفن في الجروح :

﴿ وَإِن أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغهُ مَأْمَنَهُ ذلِكَ بِأَنَّهُم قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ ، كَيْفَ يكوُنُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذين عَاهَدتُم عِندَ المَسْجِدِ الحَرَام فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُم فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهِ يُحِبُّ الْمُتَّقِين ، كَيْفَ وإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُم لا يَرْقَبُوا فِيكُم إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِم وَتَأبى قُلُوبُهُم وَأَكْثَرُهُم فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٦/٩ ـ ٨] .

الجهاد شرع لنشر حُرِّيَّة المعتقد ، فالمجتمع الإسلامي مبنيّ على أساس : ﴿ لا إكراه في الدِّينِ قَد تَبيَّنَ الرُّشْدُ من الغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦/٢] .

وابن تيمية يرى ـ محقّاً ـ أن الجهاد ليس لنشر الإسلام ، بل لدفع الظُّلم .

هـذا مـا عنـدنـا موثّقـاً ، وقـد أدلينـا بـدلونـا في (التّفـاهم والتّعـايش بين الشّعوب) ، فليـدل الغرب بـدلائـه في الموضـوع ذاته ، مستشهـدين على صحّـة مـا سيقـدّمون بكتبهم المقـدّسـة ، وتاريخهم الوسيط والحديث والمعاصر اللّذين لا نجهلها .

لقد قدمت المستشرقة الألمانيّة (زيغريد هونكه) كتابها : **(الله ليس كما يـزعم الغرب)**[1] ، وهي مستشرقـة غير مسلمـة ، ولكنهـا منصفـة أحبّت الحقيقـة ، وكتبت بموضوعيّـة وتوثيـق ،

---

(١) ترجمة : نوال حنبلي ، صدر الكتـاب عن دار النّشر الألمـانيـة هوريسونت Horizont ، والطبعة العربيّة المعتمدة هنا ط ١٩٩١/٣م .

وزيغريد هونكه هي صاحبـة كتـاب : شمس العرب تسطع على الغرب ، الّذي صدم الأفكار والمفاهيم السّائدة في الغرب الّذي ينكر كلّ فضل علمي أو ثقافي للعرب المسلمين ، وفيه تفـاصيل وبراهين موثّقـة عن أهمّ المنجزات العلميّة والفنيّة والأدبيّة الّتي قدمها العرب المسلمون .

ولهـا من الكتب أيضـاً : إبـل فـوق معطف القيصر ، و : في البـدء كان الرّجل والمرأة ، و : من انهيار الغرب إلى بزوغ أوربة ، وفي كتاب : (الله ليس كما يزعم الغرب) تفنيد لأحكام منحازة ضـد العرب ، فقـد برزت في ألمانيـة حملـة صليبيّـة جديـدة معـاديـة ومسمومـة موجّهـة للإسلام ونبيّـه وللعرب أيضاً .

سنقدّم مقاطع من كتابها المـذكور ، حسب تسلسل ورودهـا في الكتاب ، دون تعليق ، فلعل في هـذه المقـاطع بعض جواب عن سؤالنا المطروح : هذا ماعندنا عقيدة وسلوكاً ، فما عندكم عقيـدة وسلوكاً ؟!؟

وسنكتفي برقم الصّفحة ، فالمعلومات عن الكتـاب المـذكور كافية في الحاشية ، تقول زيغريد هونكه :

ص١١ : الإنكليزي وليام فون سالزبوري جعل على العملـة تمثالاً ذهبياً للوثني (ماهوميت Mahomet) ، تحرسـه فرقـة من الشّيـاطين الّـذين يقـدّسونـه راكعين ، ويقـدمون إليـه القرابين البشريّة .

تشـويـه وتـزوير من خـلال عـدد لا يُحصى من الأحكام المتحيّزة المسبقـة ، بشكل لا مثيل لـه تجـاه أيّ شعب من شعوب الأرض .

ص١٤ : وتَعُـدُّ الكنيسـة الرّومـانيّـة ، استنـاداً إلى حقّهـا المطلـق ، أن جميـع المنتمين إلى ديـانـات أُخرى وغير المُعَمَّـدين

(كُفّاراً) ، وعلى رأسهم العرب (عبّاد الأوثان) والمتضرّعين للشّيطان ، هكذا تصفهم الكنيسة باشمئزاز في المواعظ الدّينيّة ، بيد أن العرب في الحقيقة يعبدون الله الإله الواحد .

ص١٦ : **نداء ضد أعداء الله** : أطلق البابا أوربان الثّاني في ٢٧ تشرين الثّاني ١٠٩٥م في كليرمونت الفرنسيّة نداءً دعا فيه جميع فرسان الغرب إلى حمل الصّليب والانطلاق إلى القدس (لتحرير القبر المقدّس المهدّم) كما زعم ، وهو رجل الدّين الأعلى للعالم أجمع ومبعوث الله ، يقول : لا أهيب أنا بكم ، بل إنّ الرّبّ يرجوكم ويهيب بكم ، بوصفكم مبعوثي يسوع ، طرد هذه المخلوقات الحقيرة من المناطق الّتي يسكنها إخوانكم .

ص١٩ : تأجيج الكراهيّة الهستيريّة ضد المسلمين (أعداء الله) ، و (أعداء المسيح) ، أو الحشرات البائسة ، والمخلوقات الحقيرة .

ص : ٢٠ : أين هذا من تسامح المسلمين ؟ لقد تلقى الأسقف أغناطيوس في بيزنطة رسالةً من أخيه في العقيدة ، البطريرك تيودوسيوس من القدس ، قرأ في دهشة : العرب هنا

سادتنا ، إنّهم لا يحاربون الدّين المسيحي ، بل على العكس ، إنّهم يحمون عقيدتنا ، ويحترمون أساقفتنا والمقدّسين لديننا ، ويقدّمون المنح الماليّة إلى كنائسنا وأديرتنا .

والأمر الذي لا يكاد يصدّق أن العرب يفعلون ذلك أثناء أجواء الحملات الصّليبيّة الحبلى بالعداء المميت في كلّ مكان .

ص٢٢ : احتلال القدس في ٢٧ تشرين الأوّل ١٠٩٥م مأساة عديمة المغزى في تاريخ البشريّة ، انتهت بانتصار كامل للمهاجين المسيحيّين ، لكنها دخلت التّاريخ في الوقت نفسه كهزيمة أخلاقيّة معنويّة مرعبة .

ص٢٣ : ممثل الله فوق الأرض الّذي حرّض على الحرب ، والّذي استهزأ بكلّ أشكال الحقّ والعدالة على النّحو التّالي :

أيُّ عار سيلحق بنا إذا ما جنى هذا العرق الكافر المستحق للاحتقار ، الّذي فقد الكرامة الإنسانيّة وأذلّ نفسه فصار عبداً وضيعاً مُسْتَرقّاً للشّيطان ؟ أجل أيُّ عار سيلحق بنا إذا جنى النّصر هذا العرق الكافر على شعب الله المختار ؟

ص٢٤ و٢٥ : وبعـد ٢٥٠ عـامـاً من الصِّراع المستمر في الحملات الصَّليبيَّة :

وفي النِّهاية كانت الهزيمة الكاملة ، فحلَّت بالغرب صدمة ، هل عاقبت محكمة الرَّبِّ المسيحيِّين ؟! ألم يمنح الله (المحمَّديِّين) الانتصار على المسيحيِّين ؟ ألم يلحق بهم العار الَّذي كان وبالاً وشؤماً عليهم وكان سببه الأب المقدَّس ؟ ألم يمنح الله الحقَّ لمحمد ضد المسيح ؟ وللعرق الكافر المحتقر المذعن للشَّيطان ؟

وتساءل ريكولدوس دومونت كروز : ألم ينتصر إله محمد على إله يسوع كلِّياً ؟ إنَّ أفضل شيءٍ الآن الصَّلاة لمحمد .

بشر مختارون ، اختارهم الله لمعاقبة الأنذال ـ غير المؤمنين ـ بتكليف ربَّاني ، إمَّا الدُّخول في العقيدة أو القضاء عليهم ، لكن الفرسان عادوا مدحورين ومجلَّلين بالخجل والعار ، وجاء قرار الله لصالح محمَّد وضد يسوع ، فأصبح الله (عدوّاً لهم) .

ص٢٨ : بعد انتصار ـ المسلمين بقيادة صلاح الدِّين ـ عام ١١٧٨م ، ذعرت المسيحيَّة في أوربة ، فأوقدوا شعلة الانتقام

بصور حربيَّة حملها الرُّهبان عبر الشَّوارع ، وهم يطلقون صراخ الألم ، ويشاهد في إحدى الصُّور راكب متوحِّش يطأ بحوافر حصانه قبر المسيح ، ويتبوَّل على القبر ، ويُشَاهد في صور أُخرى رجلٌ يضرب المسيح على وجهه حتَّى يدميه ، ويعلم المذعور أن هذا الرَّجل هو محمد الذي يضرب المسيح ويجرحه ويقتله .

ص٣٣ : وصف فولغرام فون إشنباخ الازدهار الخاص للفروسيَّة الشَّهمة : بارز بارسيفال العربيَّ ، الَّذي ألقى سيفه بعيداً عندما كسر سيف بارسيفال ، وبات أمامه بلا سلاح .

ص٣٦ : نيكيتاس أكوميناتوس ـ بعدما سفك الصَّليبيُّون عام ١٢٠٤م دماء إخواتهم في العقيدة في بيزنطة ـ يقول في أنين : حتّى (المحمديُّون) طيِّبون ورحماء ، إذا قورنوا بهؤلاء النَّاس الَّذين يحملون صليب المسيح على أكتافهم .

ص٤٣ : يلعب التَّسامح العربي الدَّور الحاسم في انتشار الإسلام ، ويتمسَّك الغرب بخرافة عارية عن الصِّحة ، وهي أن الجيوش العربيَّة نشرت الإسلام بالسَّيف والنَّار من المحيط الهندي

وحتى الأطلسي ، دعاية عارية عن الصّحة وبعيدة عن كلّ حقيقة أو واقع تاريخي ﴿ لا إكراهَ في الدِّين ﴾ [البقرة : ٢/٢٥٦] هذه هي الكلمة الملزمة في القرآن المقدّس .

يظل المسيحيُّون واليهود على عقيدتهم كالسَّابق ، ولا يحُول أحدهم بينهم وبين ممارسة عقيدتهم ، وليس لأحد أن يلحق ضرراً بزعمائهم الرُّوحيّين ، أو بيوت عبادتهم ، أو شعائرهم .

لقد كان أفراد المعتقدات الأُخرى هم الَّذين ألحّوا بأنفسهم على الدُّخول في الإسلام ، في عقيدة وعبادات سادتهم الجدد المنتصرين ، أكثر ممَّا كان هؤلاء يأملون ، فاختاروا الأسماء والملابس العربيَّة ، وأخذوا العادات العربيَّة ، وتعلَّموا اللُّغة العربيَّة ، وتزوّجوا العربيَّات ، ونطقوا بالشَّهادة الإسلامية .

ص٤٤ : فأسلوب الحياة العربيَّة الجذاب ، والتَّمدن العربي والتَّهذيب والأَناقة والجمال ، وباختصار السِّحر الذَّاتي للثَّقافة العربيَّة ، وليس أقلها المروءة والصَّبر ، كلُّ هذه الأُمور كان لها قوَّة جذب لا تقاوم .

وشهد رعاة العقيدة المسيحيَّة في الأَندلس بمرارة امتصاص الحياة الرُّوحيَّة العربيَّة للقطيع المسيحي ، الَّذي خضع لها بكلِّ رغبة .

ص٤٧ : يرى الغرب : المسلمون يستحقُّون (الذَّبح والدَّعس وهم يغرقون بدمائهم) ، شعب الكفَّار الملعون من الله والمتعطِّش للقتل ، إنَّه شعب الكلاب والخنازير الَّذي سيتحوَّل إلى جيفة لأَنَّ أصنامه عاجزة ، وهو مخصَّص لجهنَّم ، و (مَاخَمِيد) ـ وهو اسم التَّحقير للنَّبي محمد الَّذي يزعمون أنَّه وثني ـ قد أرسلك لي لأقطع رأسك وأُلقي بجسدك إلى الطُّيور ، وأغزَّ رأسك في سيخي ، وإذا رفض أَحد العمادة ، يأمر القيصر بشنقه وذبحه وحرقه ، إنَّهم ـ أي المسلمين ـ ضالة الشَّيطان ، ومفقودون جميعاً ، وسيضرب غضب الله أجسادهم ونفوسهم ، ويسكنون الجحيم إلى الأبد[١] .

(١) كلُّ مافي هذه الصَّفحات من عبارات المستشرقة زيغريد هونكه ، فهي تذكر ما يقوله أو يعتقده الغربيُّون ، ثم تفنِّد هذه الأحكام الجائرة ضد العرب ، وتقدم الحقيقة مصوَّبة ضد هذه الحملة الصَّليبيَّة المسمومة الموجَّهة للإسلام ونبيِّه وللعرب أيضاً .

الشعوب اعتنقت الإسلام قناعة ، دون إرغام ولا إكراه على دخوله ، أو بواسطة التَّبشير ووسائله الكنسيَّة المعروفة ، فالتَّسامح العربي ، ونوع الحياة الرُّوحيَّة العربيَّة ، وسحرها المتعدِّد الجوانب ، كلُّ ذلك أدَّى إلى انقياد المسيحيِّين في إسبانية وغيرها من البلدان إلى الإسلام بسهولة ، ولكن ليس ـ كما يزعم الغرب بتعنُّت وزيف ـ بواسطة السَّيف والنَّار .

ص٥٤ : العمادة القسريَّة لجموع البشر ، وذبح الألوف منهم إذا رفضوا ، وخرق حقوق الإنسان بوحشيَّة .

ص٥٦ : في الوقت الَّذي نعم النَّاس فيه بالحرِّيَّة جنوبي جبال البرينه في إسبانية ، جرت إلى هذا الجانب من جبال البرينه تصفية كل من يدين بعقيدة أُخرى غير المسيحيَّة (الَّتي تفرَّدت بإحلال البركة) ، وجرت تصفية كل من تجرَّأ على الجهر بعقيدة أُخرى في أيِّ مكان من بلاد الغرب ، ضمن سياق التَّمييز العنصري الناشط إزاء غير المسيحيِّين .

ص٨٥ : ما أشد ما تتثبت الأحكام المسبقة ضد العرب

بتعنُّت ، وما أكثر ما يستمتع ـ الغرب ـ بتزوير تاريخهم تفصيليّاً باللُّجوء إلى أجرأ الاختلاقات المفضوحة ، ويظهر ذلك في التَّهيُّؤات والأوهام الفكريَّة الَّتي تطمس الحقائق التَّاريخيَّة لجميع الأزمنة والعصور فيما يبدو ، على الرَّغم من دحضها من بعض المؤرِّخين في بعض الأحيان .

ص٨٧ : وينبغي عليكم إفناء جميع الشُّعوب الَّتي لا تؤمن بإلهكم يَهْوَه ، ولا تأخذكم بهم شفقة ، إنَّه يجب عليكم تدمير معابدهم ، وتدمير أعمدتهم ، وقطع أشجارهم المقدَّسة ، وتقديم صورهم المنحوتة للنيران .

ص٩٠ : **إنقاذ التُّراث الثَّقافي العلمي القديم** : وهذا العمل الثَّقافي خالد لا يموت ، والعالم مدين للعرب به ، فالعرب وليس الرُّومان ، ولا البيزنطيُّون ، ولا المجموعات المسيحيَّة كالأقباط والنَّساطرة ، أجل العرب هم الَّذين جلبوا من تحت الأنقاض والأقبية المهدَّمة بقايا الثقافة الهلنستيَّة واليونانيَّة الَّتي أتلف المتعصِّبون أجزاءً منها ، وتفسَّخت الأجزاء الأُخرى ، وكانت على وشك أن تضيع إلى الأبد ، كما ضاعت حضارة المايا والإنكا ،

لولا أن امتصَّ العرب آثارها واكتشفوها ، وكانوا يأخذون التَّنقيبات لدى إبرام اتفاقيات السَّلام بدلاً من التَّعويضات الماليَّة ، أو بالطُّرق الدبلوماسيَّة .

ص١٠٢ : روجربيكون ، كررَّ بعد انصرام قرن من الزَّمن ماسبق (أديلارد فون باث) أن قاله ، ومن أعماق آلامه انطلق يقول : إذا لم نتعرَّف على جمال الكون العجيب المنتظم ، الَّذي نعيش فيه فإنَّنا نستحق أن نُطْرَدَ خارجه ، مثل الضَّيف العاجز عن تقدير البيت الَّذي يستقبله ، لقد تعلَّمتُ شيئاً من كبار علماء العرب حول القيادة بواسطة العقل ، ولكنك أنت تقتفي صورة سلطة مستبدة ، ولكأنَّك مكبَّل باللِّجام .. وعندما تقاد الحيوانات باللِّجام إلى أحد الأمكنة ، فإنها لا تستطيع التَّمييز إلى أين ، ولماذا تقاد ، إنَّها تجري فقط وراء الحبل الَّذي توثق به ، وهكذا تقود سلطة الكنيسة عدداً غير قليل منكم ، فأنتم مكبَّلون بقيودها ، لأنكم تصدِّقونها بسذاجتكم الحيوانيَّة .

ص١٢٣ : [وتختتم المستشرقة زيغريد هونكه كتابها : الله ليس كما يزعم الغرب ، بدفاعها التَّالي] :

إنَّ الإسلام لا يعرف التَّبشير الَّذي يضع النَّاس في وضع الإرغام القسري المادِّي أو المعنوي ليدفعهم دون قناعة ذاتيَّة عميقة للدُّخول في الإسلام ، وتقتصر مهمة كلِّ مسلم على تجسيد الإسلام بالكلمة والعمل ، ليتم التَّعرف عليه من خلال ذلك ، ولتهدم الأحكام المسبقة ، وبذلك فكأن المسلم يوجِّه (دعوة) للدُّخول في الإسلام بتصرُّفاته وكلامه .

☆ ☆ ☆

ويذكر (تزفيتيان تودوروف) في كتابه : (**فتح أمريكا ، مسألة الآخر**)[1] ، بعد أن أورد نصاً للمبشِّر الإسباني (لاس كاساس) الَّذي يستمطر غضب الله على كلِّ أوربة ، بسبب الفعال المارقة والمجرمة والشَّائنة الَّتي اقترفت بشكل بالغ الحيف والاستبداد والهمجيَّة ، ثم يذكر تودوروف ص١٤٣ :

« إنَّ عدد سكان الأرض في عام ١٥٠٠م يبلغ نحواً من ٤٠٠ مليون نسمة ، يسكن منهم ٨٠ مليوناً في القارَّتين

(١) ترجمة بشير السَّباعي ، نشر : دار سيناء .

الأمريكتين ، وبحلول أواسط القرن السَّادس عشر [أي ١٥٥٠م] لم يتبقَّ من هذه الملايين الثمانين عشرة ملايين ، أمَّا إذا قصرنا حديثنا عن المكسيك ، فإن عدد سكانها عشية الفتح كان يبلغ ٢٥ مليوناً ، بينما كان يبلغ في عام ١٦٠٠م مليون نسمة » .

لقد حصدت البندقيَّة الأُوربيَّة (الآخر) بوحشية وهمجيَّة عجيبة غريبة ، من أجل الذَّهب ، ولكن باسم السَّيِّد المسيح !!

أعمال التَّنصير في إفريقية ، بدأت منذ أكثر من مئة وخمسين عاماً ، ممهِّدة للاستعمار الغربي ، فالاستعمار البريطاني مثلاً ما جاء إلى إفريقية إلاَّ على خطى الكنيسة الإسكتلانديَّة ، وبالأخصِّ على يد (Dived Living Eston) وغيره من المنصِّرين الذين فتحوا الطريق للاستعمار أن يأتي ويحتل : زامبيا وزمبابوي وملاوي وأُوغندة وكينيا .. وغيرها .

والتَّنصير اليوم ، وبعد انتهاء الاستعمار العسكري ، ما زال يعمل بدعم أُوربي ، مستغلاً حاجة الإنسان وفقره ، لقد استغلَّت المنظَّمات الكنسيَّة حاجة الفقراء وعوزهم في فرض

عقيدتها ومبادئها عليهم ، ومن ذلك حالة التَّطرف التي سلكتها هذه المنظَّمات حين تركت النَّاس يموتون جوعاً في المجاعة الإثيوبيَّة ، لأنَّهم رفضوا أن يتنصَّروا عام ١٩٨٠ م .

وفي شرقي السُّودان حفر المنصِّرون آباراً ارتوازيَّة ، وبنوا مستوصفاً في إحدى القرى ، ولما رفض الناس تَسَلُّمَ الإنجيل ، ويئسوا منهم ، ردموا الآبار ، وهدموا المستوصف .

وفي أماكن عديدة من القارة الإفريقيَّة ، رفض المنصِّرون الطَّلبة المسلمين ، ويذكر وزير مسلم في ملاوي ، أنه طُرِدَ من المدرسة لأن أباه كان يلبس (الطاقية البيضاء) ، التي هي شعار المسلمين في شرق إفريقية وجنوبها .

والأمثلة على رفض الآخر وعدم الاعتراف به كثيرة ، في حين الجمعيات الإسلاميَّة للإغاثة لا تعرف التَّمييز ، إنها تقدم الإغاثة والعون والمساعدة لأيِّ إنسان ، ففي جنوبي السِّنغال حفرت الجمعية الإسلاميَّة آباراً في قرى كلُّها من النَّصارى ، فلما تمَّ حفر تلك الآبار ، أسلمت ثلاث من القرى عن بكرة أبيها

قائلين : إنَّنا نصارى منذ مئة وخمسين سنة ، ولم يهتم بنا النَّصارى ، وها أنتم أيُّها العرب ليس بيننا وبينكم أيٌّ رابطة ، نحن سود وأنتم بيض ، نحن نصارى ، وأنتم مسلمون ، أنتم عرب ، ونحن أفارقة ، وعلى الرَّغم من هذا كلِّه ، قمتم بذلك دون أن تطلبوا منا شيئاً ، أتيتم وحفرتم لنا الآبار ، وما أمركم بذلك إلا دينكم . فهذا الدين يستحق أن يُتَّبع .

إن المؤسَّسات الإسلاميَّة لا تمنع غير المسلم من الدُّخول في مدارسها ، أو العلاج في مستوصفاتها ومراكزها الطِّبِّيَّة ، أو أن يشرب من الآبار التي تحفرها ، أو أن يستفيد من الغذاء الذي توزِّعه ، لأنَّ الإسلام يأمر معتنقيه بذلك .

نسبة المسلمين في تنزانيا أكثر من ٨٠٪ ، وفي جامعاتها لا يوجد سوى ٣٪ فقط من المسلمين .

والمسلمون في كينيا ٤٥٪ ، وفي جامعاتها لا يوجد سوى ٢٪ من المسلمين ، ولا يوجد طالب واحد مسلم قبل ١٩٩٦ م في كليات الطِّب والهندسة .

وملاوي إلى عهد قريب لم يكن فيها ولا طالب مسلم في جامعاتها ، بينما نسبة المسلمين ٤٥٪ من عدد السُّكان .

أما رواندا فينصُّ القانون على ألاّ يسمح للمسلم بدخول الجامعة حتَّى وإن كان رواندياً أصيلاً ، ومن أيِّ قبيلة كانت[1] .

وحينما رأى المبشِّرون أن أحمدو بيللو ، وأبا بكر تفاوا بيليوا عقبة في وجه التَّنصير في شمالي نيجيرية ، كان انقلاب (أُورنسي) الذي تربّى على أيدي المنصِّرين ، وذُبِحَ أحمدو بيللو ، وأبو بكر تفاوا بيليوا ذبح الخراف .

الحديث يطول ، وهو الحديث نفسه عن جنوب شرقي آسية ، ويكفينا القول إن التَّنصير أخذ في إندونيسية شكل صليب يحمل حفنة من أرز ، وزجاجة من دواء ، يُقدَّمان باسم المسيح - وهو براء عليه السَّلام مما يصنعون - إلى الجماهير المسلمة الجائعة العارية المريضة ، حتَّى صار المَثَل لمن يعمل شيئاً مضطراً غير قانع به : « تنصَّروا من أجل حفنة أرز » ،

(١) الشرق الأوسط العدد ٦٥٧٥ ، الخميس ١٩٩٦/١١/٢٨ .

ويستعمل هذا المثل في هولندة ، التي استعمرت أندونيسية قبل الاستقلال ، أي إنَّهم تنصَّروا لا بدافع اليقين والاقتناع ، ولكن بسبب الحاجة إلى حبَّات الأرز .

وفي الفيلبين حرب إبادة ضد المسلمين من عصابات الإيلاجا (أي الجرذان) ، التي يرتدي أفرادها زيّاً موحَّداً مرسوماً عليه الصليب .

التسامح الذي ينادي به الغربيون المنصّرون هدفه دعوة المسلمين إلى التزام الصَّمت ، وهم يرون إخوانهم في العقيدة مستهدفين لمحاولات التَّنصير ، وما يستخدم في سبيله من مختلف وسائل (الإغراء المشروعة) .

وإذا وقف في وجههم أحد ، وجرَّدهم وأظهرهم على حقيقتهم اللاإنسانية ، وُصِمَ بالإرهاب ، وبعدم التَّسامح ، وبالتَّعصُّب ، وهذا من غلواء السُّعار التبشيري في إفريقية وآسية[1] .

---

(١) غارة تبشيرية جديدة على إندونيسية ط ١٩٧٣/٢ .

ولن نقارن بين الوسائل التي أسلمت بسببها هذه المناطق من العالم في إفريقية وجنوب شرقي آسية ، وبين الوسائل التَّنصيرية المستخدمة اليوم ، فوسائل المسلمين كانت السُّلوك الإنساني النَّبيل في كلِّ أبعاده ، وسلوكهم اليوم !؟!

أين هذا من رحمة الإسلام وتسامحه في فتوحاته ؟

إنَّ هذا التَّسامح واحترام الآخر جعل (فانسان مونتيه) أُستاذ اللُّغة العربيَّة والتَّاريخ الإسلامي بجامعة باريس يقول : « ومن أسباب إسلامي تسامح الإسلام تجاه أبناء الأديان الأُخرى » .

وأخيراً ..

دُعيتُ إلى (مالطا) سنة ١٩٨٧م ، لحضور مؤتمر عن مشكلات الشَّباب المسلم ، وكان لي شرف إلقاء كلمة الوفود في حفل الافتتاح ، وممَّا أوردته في كلمتي ، الآية الكريمة : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْناكُم مِن ذَكَرٍ وأُنثى وَجَعَلْناكُم شُعُوباً وقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُم عِندَ اللهِ أتقاكُم إنَّ اللهَ عَلِيمٌ

خَبيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣/٤٩] ، وأوردت الحـــديث النَّبـويَّ الشَّريف : قام رسول الله ﷺ لجنازةٍ مرَّت أمامـه ، فقيل لـه : إنَّه غير مسلم ، فقال ﷺ : « أوَليس إنسـانـاً » . [البخـاري في الجنائز : ١٣١٢] .

وفي حفل العشـاء ، وبعـد سـلامي على عـدد من الـزُّمـلاء والأصـدقـاء ، لاحظت أن رجـل دين مسيحي يتبعني حيث سرت ، فقلت لزميل لي : انتبه ، إن هـذا الرَّجل منـذ أكثر من نصف ساعة يتبعني ، وكأنه يريد منِّي شيئاً ، تعالَ فلنجلس لِنَرَ مـا يريـد ، وفعلاً جلست ، وجلس هـذا الرَّجل على يسـاري ، فحـدَّثني بلغـة عربيَّــة فصحى ، ولكن بلهجـة مـدينـة حلب السُّـوريَّـة ، وبعـد تعـارف ، علمت أنَّـه يمثِّـل شخصيَّـة دينيَّـة كبرى ، وسألته : أين تعلمت العربيَّـة ؟ قـال : في الفـاتيكان ، قلت له : أرى أن اللَّهجة حلبيَّة ، لمـاذا ؟ قـال : لمـدة عـامين ، كان أُستاذنـا في العربيَّـة عربي الأصل من مـدينـة حلب ، قلت لـه : رأيتـك منـذ نصف سـاعـة وأكثر تتبعني خطـوة خطـوة ،

وكأنَّـك تريـد منّي شيئـاً ؟! قـال : أعـد عليَّ الحديث النَّبـويَّ الشَّريف الَّذي أوردته في كلمتك الَّتي ألقيتهـا في حفل الافتتـاح صباح هذا اليوم ، فذكرت لـه الحـديث النبوي ، فقـال : أعـده عليَّ ثانية ، فأعدتـه لـه ، فقـال لي للمرَّة الثَّـالثـة : أعـده عليَّ ، فأعدته ، تنهَّد الرَّجل ، وعجبت من ملامح وجهه ، حيث الجد والحزم وعمق التأثُّر ، ثم قال حرفياً :

إنِّي أعتقد جازماً ، أنْ ليس في العـالم عقيـدة أُخرى ، على الرَّغم من تعدُّد العقائد العالمية وكثرتها ، تؤمن بمثل هذا التَّسـامح واحترام الآخر والاعتراف بــه غير الإسـلام ، إن الإسـلام يتفرَّد بهذا الأمر العظيم .

تنـاولنـا طعـام العشـاء معـاً ، وأظهر هـذا الرَّجـل الكريم الكثير من العناية الصَّادقـة ، وفي نهـايـة الحفل المسـائي شكرني وشكرته ، ولم أره بعد هذا الموقف ، وعلمت حينما سـألت عنـه ، أنه غير مشارك في المؤتمر ، لقـد دعي لحفل الافتتـاح صبـاحـاً ، ودعي لحفل الاستقبال مساءً فقط .

هذا بعض ما عندنا في هذا الموضوع ، أدلينا فيه بدلونا موثَّقاً ، ونحن نأمل أن يدلي الآخر بدلوه في الموضوع ذاته ، وإن لم يُدْلِ بدلوه ، فكثيراً ما يكون الصَّمت أبلغ من التَّعبير .

والحمد لله ربِّ العالمين أوَّلاً وآخراً .

الجمعة ٢٢ جمادى الأُولى ١٤١٧هـ

الموافق ٤ تشرين الأول ١٩٩٦م

الدكتور شوقي أبو خليل

المصادر والمراجع

- الأساطير المؤسّسة للسّياسة الإسرائيلية — روجيه غارودي
- التَّاريخ الباهر في الدَّولة الأتابكيَّة — ابن الأثير الجَزَري
- تاريخ الرُّسل والملوك — ابن جرير الطبري
- التَّسامح والتَّعصُّب — محمد الغزالي
- التسامح في الإسلام — د . شوقي أبو خليل
- الدَّعوة إلى الإسلام — السِّير توماس آرنولد
- الرَّوضتين في أخبار الدَّولتين — شهاب الدين المقدسي
- رياض الصَّالحين — الإمام النَّووي
- السِّيرة النَّبوية — ابن هشام
- شرح كتاب السِّير الكبير — محمد بن الحسن الشَّيباني
- شمس العرب تسطع على الغرب — زيغريد هونكه
- الكامل في التَّاريخ — ابن الأثير الجَزَري
- كتاب الخراج — أبو يوسف القاضي
- كرّاس أصدرته اللَّجنة الدَّوليَّة للصَّليب الأحمر عن حقوق الإنسان
- الكواكب الدُّريَّة في السِّيرة النُّوريَّة — ابن قاضي شهبة
- الله ليس كما يزعم الغرب — زيغريد هونكه
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين — أبو الحسن النَّدوي

مستخلص

يعرض نظرية الإسلام في التفاهم والتعايش بين الشعوب، ملتزماً بقوله تعالى: ﴿لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ، إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَظاهَرُوا عَلَى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٦٠/٨-٩].

ويحتوي على محاضرة للأستاذ هاني المبارك يبين فيها معنى التعايش لغة واصطلاحاً من القرآن والسنة، ويوضح الرغبة الإسلامية في العيش المشترك، وفي الأسس الإنسانية في المجتمع، وبخاصة مبدأ التقوى لا العصبية، ومبدأ قبول التعددية العقائدية، مستشهداً بوصية الصديق لقادة جيوش الفتح الإسلامي، وبالعهدة العمرية، وبتقرير اللجنة الدولية للصليب الأحمر في جنيف عن استقرار المبادئ الإنسانية في الفقه الإسلامي حتى مع العدو، وبأمثلة من التاريخ تفخر بأن أرض الإسلام لم تشهد الاضطهاد الديني أبداً.

كما يحتوي بحثاً في الموضوع نفسه للدكتور شوقي أبو خليل، يثبت فيه أن الإسلام دين التسامح، يعترف بالآخر ويحاوره بالتي هي أحسن، ويضمن لغير المسلمين وجودهم بحرية وطمأنينة على أنفسهم وأهليهم وأموالهم ودور عبادتهم، بنصوص تاريخية موثقة منذ عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حتى أيام العثمانيين.

ويدعو إلى أن يحل الحوار الهادئ لا العنف والشجار، مع التعايش والتفاهم بين جميع الشعوب.

Abstract

A book presenting Islam from the viewpoint of mutual understanding and coexistence among peoples while adhering to Allah's saying "Allah does not forbid you from those who do not fight you because of religion and do not expel you from your homes – from being righteous toward them and acting justly toward them. Indeed, Allah loves those who act justly. Allah only forbids you from those who fight you because of religion and expel you from your homes and aid in your expulsion – [He forbids] that you make allies of them. And whoever makes allies of them, then it is those who are the wrongdoers." [Al-Mumtahinah 60: 8, 9].

It also involves a lecture by Dr. Hani Mubarak, in which he sheds light on the sense of coexistence linguistically and terminologically according to the Qur'an and the Prophetic Sunnah. Moreover, he makes clear the Islamic inclination to mutual living and the human bases of the society, especially the principle of righteousness instead of fanaticism as well as the principle of multiple beliefs, quoting Abu Bakr's advice to the leaders of the Islamic conquest, the Umarite trust, the report of The International Committee of the Red Cross in Geneva concerning the firm human principles in the Islamic jurisprudence even with enemies and examples from history which makes Muslims feel proud that the land of Islam has never witnessed any form of religious persecution.

In addition, Dr. Shawqi Abu Khalil handles the same topic and proves that Islam is the religion of tolerance, for it admits the other, dialogues with him in a way which is best and secures for non-Muslims their existence freely while their minds are at rest toward their souls, families, wealth and places of worship with authoritative historical texts since the time of Messenger Muhammad (pbuh) till the Ottoman period.

Subsequently, the book invites to replacing violence for tranquil dialogue abreast with coexistence and mutual understanding among peoples.

دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر

دمشق - سورية ص.ب: ٩٦٢
هاتف: ٢٢١١١٦٦ فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
e-mail: fikr@fikr.com - http://www.fikr.com